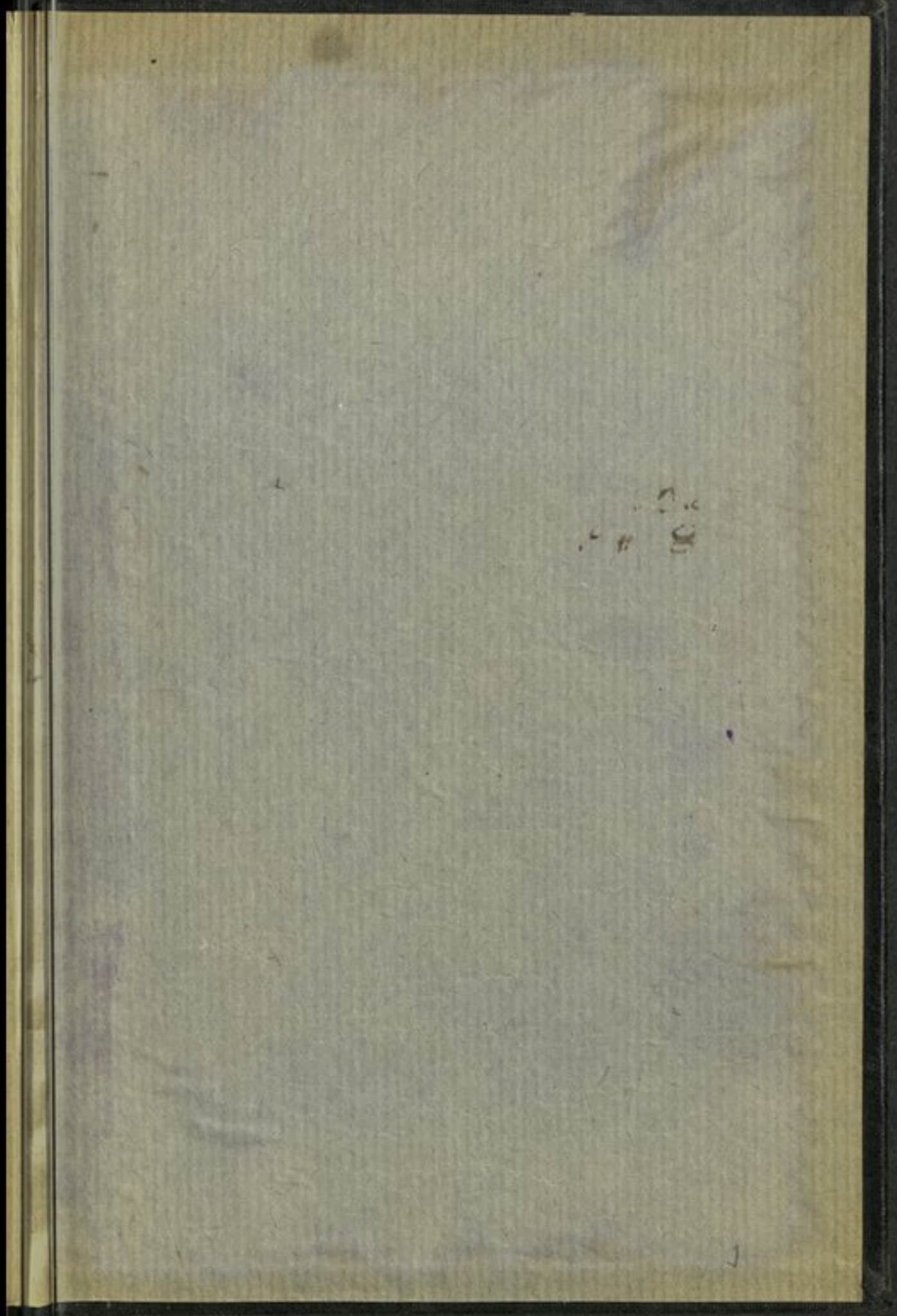


البستاني

معارف العرب في الهند



946.02: B981mA

البستاني، بطرس.

معارك العرب في الاندلس.

946.02
B981mA

~~7/21 Sep 66~~



~~55~~
~~30~~

~~7 Feb 67~~
~~22 Jan 68~~

~~SE 24 '56~~

~~DE 19 '56~~

~~12 Sep 68~~

~~5 AUG 1968~~

~~MAR 1967~~

JAFET LIB.

~~17 '58~~

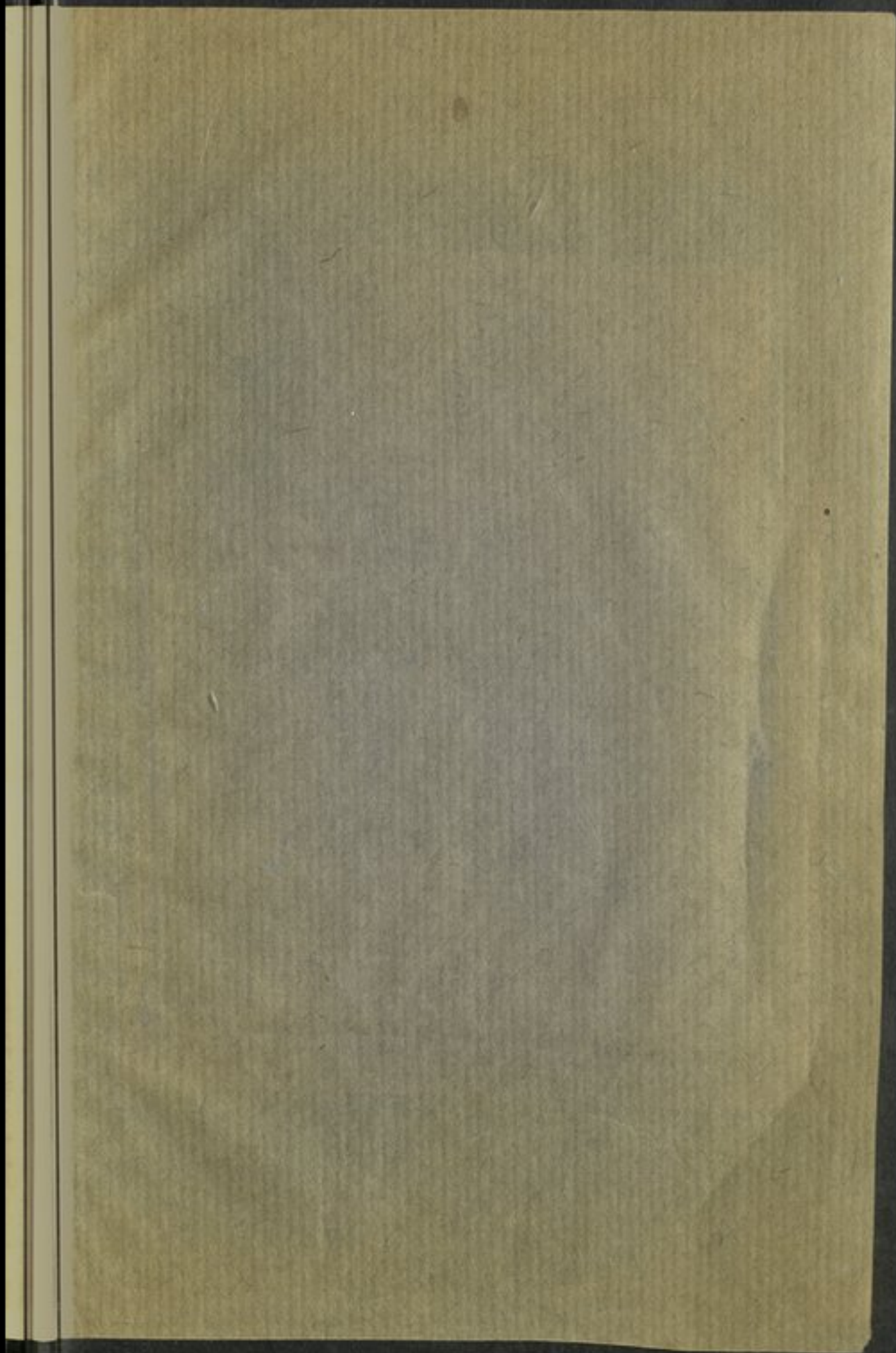
JAFET LIB.

~~21 '59~~

21 APR 1978

~~3 Nov 65~~





AS

كتب للمؤلف

- ١ - في الشرق والغرب
معارك العرب
٢ - في الاندلس
٣ - في الشرق (تحت الطبع)



الشعراء الفرسان منتقيات ادباء العرب



- ١ - في الجاهلية وصدر الاسلام
ادباء العرب
٢ - في العصر العباسي
٣ - في الاندلس وعصر الانبعاث



اساطير العرب (في الاعداد)

946.02
B 981m A

بطرس البستاني

معارف العرب

في الأندلس

منشورات دارالمكشوفات

كتاب المطبوع

دكتور لسان

الطبعة الاولى ، بيروت - لبنان ، تموز ١٩٥٠
جميع الحقوق محفوظة لبطرس البستاني ولدار المطبوع

يوم طليطلة

تلك المملكة التي اسسها بنو امية في الاندلس، وحقق عبد الرحمن الناصر وحدتها، وبسط بغزواته الظافرة سلطانها، صار امرها الى الضعف والانحلال بعد ان سطا عليها الحاجب المنصور وانشأ دولته العامرية في قلب دولتها، حاجراً على الخليفة هشام، مستقلاً دونه بالنهي والامر. فأسقط هيبة الامويين من نفوس اهل الاندلس، ووطد فيهم هيئته بما أوتي من فتوح وانتصارات. وانتقل الملك من بعده الى ابنه عبد الملك ثم الى ابنه الآخر عبد الرحمن، وكلاهما جرى على سنن ابيه في الحجر على الخليفة، والاستبداد بالسلطة والنفوذ. غير ان عبد الرحمن طمحت عينه الى الخلافة، فطلب من هشام ان يوليئه عهده، فلباه هشام ونزل

عند رغبته لما هو عليه من الضعف والاستكانة . فنقم الامويون
والقرشيون على الخليفة ، وخافوا ان يذهب الامر من يدهم ،
فخلعوه وبايعوا محمد بن هشام من حفدة عبد الرحمن الناصر ،
فتلقب بالمهدي . وكان عبد الرحمن غائباً في غزوة ، فلما بلغه الخبر
قفل الى قرطبة ، فأرسل اليه المهدي من قبض عليه واحتز رأسه ،
فانقرضت بموته الدولة العامرية . ولكن محمد بن هشام لم يستقر
ملكه على حال لانه جافى البرابرة لميلهم الى العامريين ، فأتمروا
به وبايعوا المستعين بالله سليمان بن الحكم . فانشق البيت الاموي
بعضه على بعض ، ونشبت الفتنة بين الاميرين ، فمرة كان ينتصر
المهدي فيهمز المستعين ، ومرة كان ينتصر المستعين ، فيلجأ المهدي
الى الملك الاسباني فيمده ويعيده الى عرشه . ثم تم الامر
للمستعين ، فتغلب البربر على الاحكام وارتفع شأنهم .

وكان علي بن حمود الادريسي قد جاء من المغرب ، واخذ
يدعو البربر لمبايعته معتمداً على نسيبه الذي يرفعه الى علي بن
ابي طالب وفاطمة بنت النبي . فبايعه البرابرة ، فقتل المستعين وتلقب
بالناصر . فلبثت الخلافة مدة من الزمن تنتقل بين الامويين
والحموديين حتى صارت للمعتضد بالله هشام بن محمد الاموي ، فملك
برهة يسيرة ، ثم خانته وزراؤه وحرصه فخلعوه فهرب من قرطبة ،
وانقطعت به الدولة الاموية . فصار الامر بعده الى الوزير ابي
الحزم جهور فدعا جماعة العظماء الى مشاركته في الحكم ليأمن
معارضتهم ، فارتضوا بذلك ، ونشأ في قرطبة نوع من النظام
الجمهوري ولكن من طبقة الاشراف . واما ولايات الاندلس فان

رؤساء الطوائف فيها من بربر وعرب وموال اقتسموا خططها حتى كاد يكون على كل مدينة امير مستقل فعرفوا بملوك الطوائف . ومثل هذا التفسخ العميم في جسم الدولة لا يدعو الى التفاؤل بقيام نظام سياسي ثابت تهنأ به تلك الامارات المستقلة ، وبعضها يتفاوت عن بعض في قوته واتساع ارضه ، فلا بد للقوي ان يطمع في ابتلاع الضعيف ليزداد به قوة ، فيجد امامه اميراً منافساً ينازعه التوسع ، فيأخذ الضعيف تحت حمايته فيصبح تابعاً له . وتقع الحروب بين هؤلاء الامراء فيشل واحد من قوى الآخر . وربما استنجد بعضهم على بعض الامراء المسيحيين فيغتنم اولئك الفرصة ، فيهاجمون الاندلس يستولون على عواصمها ، ويخضعون ملوكها ، ويفرضون عليهم الجزية ، او يجعلونهم عمالاً لهم . ولو لم يكن امراء اسبانية هم ايضاً على اختلاف مستمر وتنازع فيما بينهم ، لما استطاع ملوك الطوائف ان يستقروا في الاندلس زمناً طويلاً مع ما هم عليه من تقسم وتخاذل .

وحاول ابن جهور صاحب قرطبة ان يجمع شتيت الامراء الى دولته متوهماً ان وجوده في عاصمة الامويين كاف لان يحمل سائر الولايات على الاعتراف بسلطانه لانها تعودت من عهد بعيد ان تخضع لحكام قرطبة ، فكاتب الامراء كبارهم وصغارهم يدعوهم الى طاعته ، فلم يخفوا به ، ولا تكلفوا مؤونة الرد عليه . فاضطر اخيراً الى ان يعترف باستقلالهم مكرهاً ، وفي رأسه خطة يريد تحقيقها وهي ان يوسع ملكه باغتصاب الامارات الصغيرة التي لا قبل لها بمقاومته وحماية استقلالها . فوجه حملة الى هذيل بن

رزين صاحب السهلة ، فقهره واستولى على امارته . فالتجأ هذيل الى
 اسماعيل بن ذي النون امير طليطلة ، فبادر هذا الى انجاده ليحول
 دون توسع ابن جهور ، فطرد القرطبيين من السهلة واعادها الى
 صاحبها ، ثم ناصب قرطبة العدا ، فاصلاها حرباً طويلة ، تابعها من
 بعده ابنه المأمون . وتوفي ابن جهور سنة ٤٣٥ هـ (١٠٤٣ م)
 فانتقل الحكم من بعده الى ابنه محمد ، ولم يكن كأبيه صاحب قوة
 وعزم ، وانما عرف بالتعقل والعدالة . فأراد ان يصرف هذه
 الحرب عنه بالمصالحة فأباها عليه امير طليطلة وصاحب السهلة واضطراه
 الى القتال لطمع المأمون في الاستيلاء على قرطبة . إلا ان غارات
 فردينان الاول على طليطلة واثخانها فيها كان يكره صاحبها على
 مهادنة ابن جهور حيناً بعد آخر . فان ملك جليقية
 (Galice) وقشتالة (Castille) لم يغرب عنه ضعف ملوك
 الطوائف وتناحرهم ، وان الفرصة سانحة لامتلاك بلدانهم وبسط
 سلطانه عليهم . فأخذ يهاجم الثغور الاسلامية ، ينتزع المدن
 والحصون من امراءها ويفرض عليهم الجزية ، فاستولى على قسم
 كبير من الاراضي البرتغالية ، املاك ابن الافطس صاحب
 بَطَلَسْيوس (Badajoz) واغار على الدولة الهودية في
 سَرَقْسَطَه (Saragosse) فأخضعها وألزم اميرها ان يؤدي له
 الجزية ويعينه على امراء المسلمين . وأخضع ايضاً المأمون امير طليطلة
 وألزمه كما ألزم ابن هود . ثم غزا المعتضد بن عباد صاحب اشبيلية
 فدحره وضرب عليه الجزية . فأصبح اعظم الامراء الاندلسيين
 يقدمون الطاعة لملك الجلائقة .

ولما صارت طليطلة في حماية فردينان نشط اميرها المأمون يحيى بن ذي النون إلى محاربة ابن جهور صاحب قرطبة مستعيناً بالقشتاليين، وباحلافه بني عامر حكام بلنسية (Valence) وابن رزين صاحب السهلة. فأحس ابن جهور بالخطر المحدق بامارته، وانه عاجز عن مقاومة هؤلاء المجتمعين عليه، فاستصرخ المعتضد بن عباد صاحب اشبيلية، وابن الافطس امير بطليوس، داعياً اياها الى التحالف على طليطلة، وكانت تهددهم جميعاً، مؤكداً لهما اعترافه باستقلال دولتيهما. فبادرا الى محالفته، وامداده بالعساكر. ولكن المأمون ومن معه من الخلفاء استطاعوا ان يهزموا جيوش ابن جهور وانصاره، وان يرحلوا الى قرطبة فيضربوا عليها الحصار الشديد. فأصبحت لا نجاة لها من السقوط إلا اذا جاءها مدد من الخارج. فعاد اميرها يستغيث بحليفه صاحب اشبيلية، وكان المعتضد يطمع في الاستيلاء على قرطبة ليبسط بها حدود مملكته، فرأى الفرصة سانحة لتحقيق رغائبه، فأمدها بجيش عظيم يصحبه وزيره محمد بن عمار. فسار الجيش اليها، وكشف الحصار عنها، فخرج القرطبيون يتعقبون اعداءهم. وفيما هم يدافعونهم ويشخنون فيهم اخذ ابن عمار يحتل العاصمة، ويمتلك حصونها. وكان اميرها محمد بن جهور مريضاً، فألمه الخطب لا يستطيع له رداً، فمات من قهره بعد ايام.

وعاد جيش قرطبة تحقق على رأسه الوية النصر، وقد هزم جيوش طليطلة واحلافها شر هزيمة. ولم تكن خيانة اشبيلية لتخطر له في بال. فلما رأى عاصمته بايدي حلفائه، وابوابها

موصدة في وجهه، وقف مدهوشاً حائراً امام فاجعة لا يتوقعها. فدعاه الاشبيليون الى الاستسلام، وكان على مقدمته عبد الملك ابن الامير محمد، فراعته ان تنهار دولة ابيه، فاندفع كالمجنون يقاتل مستميتاً، حتى سقط عن فرسه مغمى عليه من ألم الجراح. فارتد الحارث بن الحكم قائد الجيش القرطبي بفرسانه الى مدينة الزهراء فلبث معتصماً بها مدة، ثم جاءه نبأ موت الامير محمد وابنه عبد الملك، فترك الزهراء، وسار الى طليطلة فحالف عدوه ابن ذي النون، لينتقم من ابن عباد حليفهم بالامس.

وكانت طليطلة تؤدي الجزية، كما ذكرنا، لفردينان الاول ملك قشتالة، فلما مات قطعها المأمون عن اولاده مستفيداً من اختلافهم، فقد ثار واحد منهم على الآخر ينازعه نصيبه من ملك ابيه فوقعت بين الاخوة الثلاثة حروب اهلية متتابعة، ثم فيها النصر اخيراً ل بكرهم سانجه (Sancho) فضم اليه جميع ممتلكات والده سنة ١٠٧٠ م، وهرب اخوه غرسيه (Garcia) الى اشبيلية مستجيراً بالمعتمد بن عباد، وكان قد ولي الامر بعد ابيه المعتصد. ولجأ اخوه الثاني الفنس الى طليطلة مستجيراً بالمأمون، فأحسن وفادته وانزله عنده عزيزاً مكرماً. إلا ان سانجه لم يعيش طويلاً بعد استئثاره بالدلة، و فقد قتل غيلةً في كمين نصب له سنة ١٠٧٢.

ويقول المستشرق الالماني جوزف اشباخ ان هذا الكمين حدث بمسعى اخته اوراكا او اخيه الفنس، او كليهما معاً.

ولما انتهى الخبر الى الفنس غادر طليطلة وجاء لاون فاعتلى عرشها، نصيبه من ابيه، ثم جمع اليه عرش قشتالة نصيب اخيه

شأنه، وترك جليقية لآخيه غرسيه يتمتع بها بضعة أشهر، ثم انتزعها منه بعد أن اعتقله خدعة سنة ١٠٧٣ ووجه مغلولاً في بعض الحصون، فلبث طوال حياته سجيناً حتى مات.

ولم يغفل الفنس عن تعزيز سياسته في الأندلس الإسلامية، وله من أمير طليطلة صديق آواه يوم كان طريداً ضعيفاً، فعقد حلفاً بينه وبين المأمون تعاهداً فيه على الصداقة الخالصة والتعاون المشترك في ما يؤول إلى خير بلديهما، فأصبح في وسع صاحب طليطلة أن ينتقم من عدوه ابن عباد ويستولي على قرطبة، فوجه إليها جيشاً من فرسان طليطلة، والمرزقة القشتاليين، معقود اللواء على الحارث بن الحكم قائد ابن جهور، فهاجم الحارث عاصمة الأمويين حين غرة، ودخلها دون أن يلقي مقاومة. على أنه ما تحول إلى الزهراء يريد امتلاكها حتى تصدى له سراج الدولة ابن المعتمد بن عباد بحرس من المغاربة يدافع عن قصور الملوك وذخائرهم، إلى أن سقط في المعركة سريعاً فانهزم الحرس، وتم النصر لطليطلة (٤٦٨ - ١٠٧٥).

ودخل المأمون قرطبة ظافراً، إلا أنه لم يتمتع بانتصاره فقد توفي، وكان كبير السن مريضاً. ويقول ابن خلدون أنه مات مسموماً وحمل إلى طليطلة فدفن بها. وكان ابنه وولي عهده هشام قد مات قبله، فأوصى بالملك لحفيده القادر بالله يحيى بن اسماعيل، وكان هذا قاصراً فأقام له مجلس وصاية من صديقه الملك الفنس السادس والحارث بن الحكم وبعض الولاة. ولكن هذه الثقة بحليفه لم تقع موضعها، فملك قشتالة نسي ضيافة طليطلة وعطفها

عليه، ونسي صديقه المأمون يوم أمنه من خوف، وغابت عنه
العهود التي واثقه عليها، وما أقسم له من الايمان على رعاية الامير
القاصر وحماية بلاده. وأبت نفسه إلا ان تشعر بشعور العرش
والوطن، فنجحت عنده مساعي ابن عمار وزير المعتمد، فارتضى
ان يحالف صاحب اشبيلية عدو الملك الذي هو وصي عليه،
وان يعده بالمساعدة في توسعه ومحاربة الامراء المسلمين. ورضي
ابن عباد ان يساومه على ابناء ملته، فيترك يده حرة تتصرف في
طليطلة، ثم يؤدي له الجزية صاغراً، لا يحد بها غضاضة في سبيل
مظامعه. وتروي الاخبار الاسبانية ان المعتمد بن عباد بعث
ابنته «سيدة» الى بلاط الفنس تمكيناً للصدقة، فاتخذها هذا
حظية له. وكان امراء اسبانية المسيحية يتسرون يومئذ بالنساء
تشبهاً بامراء الاندلس المسلمين. على ان الرواية العربية تنفي هذه
التهمة عن امير اشبيلية، وتلقي نوراً على حقيقة المرأة المسلمة التي
صارت في حوزة الملك الاسباني. فقد تمكن المستشرق لاوي
بروفنسال من جلاء هذا الحادث الذي بقي غامضاً على المؤرخين
المحدثين، ينفيه بعضهم، ويثبتته بعضهم الآخر، وذلك انه عثر سنة
١٩٣٤ على رواية عربية اصح من الرواية الاسبانية واثبت،
اوردها ابن عذاري المراكشي في القسم الثالث من كتابه البيان
المغرب، وفيها يقول ان البعث الذي ارسله الفنس السادس سنة
٥٠١ هـ (١١٠٨ م) لمحاربة ابي الطاهر تميم اخي السلطان علي
ابن يوسف، وكان يحاصر قلعة اقليش (Ucles)، قتل فيه امام
اسوارها ابنه شانجه من زوجة المأمون بن عباد، وكانت قد

تنصرت مع نحو سبعة آلاف فارس . فمن رواية ابن عذاري
 هذه يتبين ان الاميرة سيدة ليست بنت المعتمد بن عباد بل
 زوج ولده المأمون . وكان المأمون والياً على قرطبة من قبل ابيه ،
 فلما هاجمها المرابطون ، وعلى رأسهم القائد سير بن ابي بكر ،
 قتل المأمون في الموقعة ، ودخلها المرابطون ظافرين في ٢٦ اذار
 سنة ١٠٩١ (٣ صفر ٤٨٤٠ هـ) .

فالظاهر ان ارملة ابن المعتمد هربت مع ثلثة من فرسانها
 الى الفنس السادس محتمية به ، فتسرى بها وتنصرت مع جماعتها .
 ويؤيد ذلك دليل آخر وقع عليه المستشرق هنري بريس ، وهو
 عبارة عن فتيا كتبت في اواخر القرن الخامس عشر ، او اوائل
 القرن السادس عشر ، وصاحبها الفقيه المراكشي يحيى الونشريشي ،
 افتى بها جواباً على سؤال : أيستطيع المسلم ان يغادر الاندلس
 الى افريقية اذا تيسر له ، ام يبقى فيها ليسانع اخوانه في الدين ؟
 فكان جوابه بتحتيم الهجرة على من يستطيعها من المسامين بعد
 استيلاء الاسبانيين على الاندلس ، محافظة على نسايم ، لثلا تعقد
 زوجة بعضهم او ابنته صلته باعداء الدين ، فيقودها الامر الى
 ترك الاسلام ، كما اصاب كنة المعتمد بن عباد واولادها الذين
 تنصروا معها وهم ابناء المأمون .

وبينا ابن عباد يزحف بجيشه الى غرناطة ليخضع صاحبها ابن
 باديس ، اذا الفنس تهباً لغزو طليطلة واحتلالها (١٠٧٩ م) ،
 وكانت قد ثارت على اميرها القادر بن ذي النون لاكثراره من
 فرض الضرائب ، ارضاء لشهواته وترفه ، او اشباعاً لمطامع ملك

قشتالة . فجاء الفنس الى طليطلة متذرعاً بحجة الدفاع عن حليفه ،
 فعاث في ولايتها مخرباً قراها وحصونها ، ثم ارتد عنها عندما بلغه
 ان المنصور امير بطليوس قادم لنجدتها . وعاد في العام التالي
 يفسد في بسائطها ، ويستبد بقلاعها وزروعها . وما زال يوالي عليها
 الغارات في كل عام حتى اضعفها ، ونهك قواها ، ورمها بالضييق
 والفاقة . ثم دلف اليها في السنة السادسة يبغى العاصمة نفسها ،
 فألقى عليها الحصار حتى منع عنها كل صلة ومدد . فراحت
 تستغيث بامير بطليوس ، فأمدها المتوكل بن الافطس بجيش على
 رأسه ولده الفضل ، ولكنه لم يثبت امام قوات الفنس الساحقة
 فانهمز مدحوراً ، ولم يبق للقادر امل من النجاة . وكان الجوع
 يهدد المدينة فخاف ان يثور عليه الشعب فيقتله فأرسل الى
 الفنس يطلب الصلح على ان يؤدي الجزية ، ويكون تابعاً له ،
 فرفض الفنس مطالبه ، واشترط عليه ان يفتح ابواب المدينة
 ويسلمها اليه ، واعدأ بان يحافظ على ارواح المسلمين ومقتنياتهم ،
 وان يترك لهم المسجد الجامع يصلون فيه ، وان لا يعارضهم في
 دينهم وشرائعهم . وخيرهم في البقاء او المهاجرة . فمن احب البقاء
 يؤدي الجزية كما يؤديها المسيحيون في بلاد المسلمين . ومن آثر
 الهجرة يُسمح له بان يحمل امواله حيث يشاء . وضمن للقادر ان
 يدع له امارة بلنسية يتصرف فيها ، ولا يبخل عليه بالمساعدة اذا
 احتاج الى الدفاع عنها .

في الخامس والعشرين من ايار سنة ١٠٨٥ دخل الفنس السادس ،
 ملك قشتالة ولاون وجليقية ، عاصمة القوط القديمة باهة وجلال

منتزعاً من العرب احدى قواعد الاندلس الكبرى : طليطلة العاصية
التي طالما تمردت على امراء المسلمين ، فبذل عبد الرحمن الناصر ،
والحاجب المنصور من بعده ، اعظم الجهود لاختضاعها وكسر
شوكتها ، فكان يومها المشؤوم كارثةً على الاندلس العربية لان
قشتالة ، حين تملكها ، اصبحت جامعةً على ضفتي نهر التاج ، ممدودة
النظر الى ثغور المسلمين .

معركة الزلاقة

ما لبث المعتمد بن عباد امير اشبيلية ان ساوره الندم على مخالفته الفنس السادس ملك قشتالة ومعاذته له في انزاع طليطلة من القادر بن ذي النون ، فان العاهل الاسباني ما كاد يحيط بنهر التاج من عدوتيه مستطيلاً على منافذ الاندلس العربية حتى فهد يفتتح قلاع الشاطئين وما حولها من المدن والضياع ، وراح يهدد قرطبة وماردة (Mérida) وبطليوس (Badajoz) ، فذعر المعتمد وتراءى له الخطر المحقق باملاكه فارسل الى الفنس يستوقفه عن الفتح ، ويطلب منه ان يراعي المعاهدة التي بينهما فلا يتجاوز طليطلة ، فرد عليه الفنس بما عرف به من دهاء ومراوغة ، وهو انه انما يملك ولاية طليطلة كلها شريكاً لصديقه

القادر بن ذي النون صاحب بلنسية . وكان المعتمد منصرفاً يومئذ الى محاربة ابن باديس صاحب غرناطة طامعاً في ضم هذه الامارة الى مملكته ، فاراد الفنس ان يظهر له حسن نيته من حيث يروم خداعه ، فامده بخمس مائة فارس مدرع من الاسبانيين ، ليقاتلوا معه في غرناطة ، فاجس المعتمد شراً . وازعجته هذه النجدة التي لم يرغب فيها ، ولا شاقه قدومها ، ففضل ان يصالح ابن باديس على ان يستبقيا عنصراً خطراً في جيشه . فلما عادت الى طليطلة دون ان تسفر بعثتها عن نتيجة ترضي ملك قشتالة ، كتب هذا الى المعتمد يطلب منه ان يتخلى له عن الحصون التي يمتلكها في ولاية طليطلة . فعظم الامر على امير اشبيلية ، واوجعه خطؤه وسوء سياسته ، وعلم ان لا سبيل الى كسح مطامع الفنس الا اذا قابل الشدة بالشدة . وهو وان يكن يحمل اليه الجزية كغيره من ملوك الطوائف ، الا انه كان اوسعهم دولة ، واقواهم سلطاناً ، فلماذا لا ينتفض على الطاغية ، ويرفع عن مخنقه يداً قاسية القبض ؟ بل لماذا لا يسعى الى دعوة الامراء المسامين ان يتركوا الخلاف ويتحدوا لدرء الخطر المشترك ؟ فقد آن لهم ان يطهروا قلوبهم من احقادها ويمد بعضهم الى بعض يده مصافياً ومعاوناً . فالامراء المسيحيون في اسبانيا ادركوا قبلهم ضرورة التعاضد للتغلب عليهم واخراجهم من تلك الارض الجميلة التي افتتحها اجدادهم ، فتناسوا ما بينهم من عداة قديم يفرقهم ويضعفهم ، فاجتمعت كلمة الفنس السادس وشانجه (Sancho) صاحب ارغون ونافار ، ورمند (Berenguer)

(Raymond) امير برشلونة ، فنهضوا نهضة واحدة لينقضوا على
 العدو الغريب متميزين بتخاذله وانقسامه . فمتى يدرك امراء الاندلس
 ما ادركه امراء اسبانيا فيهبوا للدفاع عن ارضهم متضافرين لا
 متفسخين ؟ أفما يخلق بالمعتمد بن عباد ان تدور هذه الفكرة
 في رأسه عندما جاءته رسل الفنس تستنزله عن حصونه في ولاية
 طليطلة ؟ فاذا به لا يتدكأ عن الرفض حاملاً نفسه على الخطة
 الصماء يريد فصلها ، وان ساءت ساءت مغة الفصل .
 فانار رفضه سحق العاهل القشتالي كما كان ينتظر ، فنقض
 الحلف وجاهره العداء ، ثم زحف بجيوشه يضرب في ولايات
 الاندلس فاستولى على قورية (Coria) من بني الافطس ،
 واغار على بسائط اشبيلية ، فأخن فيها واحرق قراها وحقوقها ،
 حتى بلغ جزيرة طريف ، فادخل قوائم فرسه في البحر وقال :
 « هذا اقصى بلاد الاندلس قد وطئته . » ثم ارتد الى قلعة
 سرقسطة (Saragosse) يبتغي فتحها ، فالتقى عليها حصاراً
 شديداً ، واعمل الحديد والنار في ولايتها . فدافعت عاصمة
 الدولة اليهودية عن نفسها دفاع المستبسل المستميت . ولكن
 الاسبانين ضيقوا الخناق عليها ، فراحت تستغيث بجاراتها
 المسامة . وملوك الطوائف ضعاف متمزقون يبصرون الكارثة
 مقذوفة اليهم ، فتنخلع قلوبهم هلعاً ، ولا يستطيعون لها رداً .
 وهالهم ان تسقط سرقسطة بعد طليطلة ، قاعدة تلو قاعدة ،
 فاذا يكون مصير الاندلس ان لم يهبوا متساندين للنضال عنها ؟
 فالمصيبة جامعة لا تعف عن واحد منهم ، ولا يؤمل بغير

الاتحاد الخوول دون استشرأها . فتداعوا الى مؤتمر يعقدونه في مملكة ابن عباد ، اعظمهم دولة ، فاجتمعوا في اشبيلية ثم في قرطبة ، واتفقوا على ضم جهودهم لدفع المغير وانقاذ سرقسطة . بيد انهم لم يكونوا واثقين بالظفر لما يعلمون من ضعف قواهم ازاء القوات الاسبانية القاهرة . فقررروا ان يستنجدوا يوسف ابن تاشفين امير المرابطين في عدوة افريقية ، وكان صاحب شوكة وسلطان ، يسيطر على شعب مخشوشن الابدان يستطيب الحرب والكفاح ، لم ينغمس في الترف والملذات كأهل الاندلس لتخور عزائمهم فيستكره القتال .

ولا يتوقع ان يصم زعيم المرابطين اذنيه عن نداء اخوانه المسلمين ، لما به من حمية للدين ، ثم لما يضر في نفسه من مأرب يهزه لفتح الاندلس والحاقها بافريقية ، ما دام امراؤها ضعافاً متواكلين لا يملكون وسائل الدفاع لحمايتها . فمن الخير للمسلمين ان يدخلها المرابطون ، ويمنعوها ان تقع في قبضة المسيحيين . بيد ان يوسف بن تاشفين ، على رغبته الشديدة في الذود عن ابناء ملته ، وبسط سلطانه على الاندلس ، لم يسرع الى تلبية ملوك الطوائف دون ان يتبصر بالامر ويقبله على وجوهه ، فقد كان يجهل ارض الاندلس ، ولا يعرف الا الشيء القليل عن الامراء المسيحيين . فاشفق ان يغرر بجيشه في بلاد غريبة قبل ان يحتاط للطوارئ ، ويتدبر عواقب مغامرته واقدامه . فدعا اليه كاتبه عبد الرحمن بن أسبسط الاندلسي ، وطلب منه ان يشرح له احوال اسبانيا ، وما يحول من العقبات دون

التغلب عليها . فذكر له الكاتب ان المسلمين هناك لا يعمر
 الاثنى البلاد ، في حين ان النصارى يعمرون سبعة اثنائها .
 وشبه اسبانيا بسجن لمن دخلها ، لا يخرج منه الا تحت حكم
 صاحبه . فاذا كان الامير عاقداً نيته على العبور اليها ، فيحسن
 به ان يجيب المعتمد بن عباد بانه لا يمكنه الجواز اليه الا اذا
 تنازل له عن الجزيرة الخضراء ليجعلها مقر اجناده واثقاله .
 ويريد عبد الرحمن بذلك ان يبقى سيده متصلاً بافريقية حتى
 اذا اخفق في حملته لا تسد عليه طريق الرجعة اليها . فاستصوب
 الامير هذا الرأي ، فكتب به الى صاحب اشبيلية ، ولبث
 ينتظر الجواب ويتأهب للقتال .

وكان الفنس في تلك الاثناء قد ثقلت وطأته على الولايات
 الاندلسية ، فلقى ابن هود اشد العناء في الدفاع عن سرقسطة ،
 وما سلمت من التخريب بسائط اشبيلية وحصونها . وبات الخطر
 يهدد المتوكل بن الافطس امير بطليوس . فرأى المعتمد بن عباد
 ان يستوقف شر الملك الاسباني باداء الجزية والنزول له عن
 الحصون المتاخمة ، فارسل اليه يسأله الهدنة ، وييدي رغبته في
 تسليم الحصون ، وتقديم الاتاوة . فاوفد الفنس بعثة على رأسها
 احد قواده ، ومعه يهودي يقال له ابن شاليب ماهر في نقد
 الدراهم الزائفة . فنزلوا في ظاهر المدينة ، فوجه المعتمد اليهم
 المال مع جماعة من وجوه دولته ، فطلب ابن شاليب ان ينظر
 فيه قبل تسلمه . فاستاء الوفد الاشبيلي ، وعدوا ذلك اهانة
 لهم ولا ميرهم . فاحتدم الجدل بينهم وبين البعثة الاسبانية ،

فأصر اليهودي على طلبه ، فاقترح القائد السفير ان يقدم ابن عباد بدلاً من المال سفناً حربية . فعاد المندوبون بالمال الى سيدهم ، واخبروه بما حدث ، فتلظى حنقاً حتى خرج عن دائرة اعتداله ، فامر بقتل السفير ومن معه ، وكانوا ثلاثمائة ، ولم ينج منهم غير ثلاثة تمكنوا من الفرار . ويروي صاحب « نصح الطيب » عن ابن الببائنة شاعر المعتمد ان الامير لم يقتل من البعثة غير اليهودي فقد امر بصلبه . واما المسيحيون فانه اكتفى بان يزجهم في السجن .

ويقول ابو عبد الله الحميري في « أروض المعطار » ان الفرس طلب زيادة على الضريبة والحصون ان تأتي امرأته الى قصور الزهراء فتزل فيها الى ان تلد ، لان القيسيين اشاروا عليها بان تتردد على الجامع الكبير في قرطبة لتتبرك مدة حملها بزيارة الكنيسة التي كانت بجانبه الغربي قبل بنائه ، فرفض ابن عباد هذا الطلب ، فراجع ابن شاليب واغلظ له القول ، حتى اغضبه فأمر بصلبه منكوساً .

ثم فكر بما يجبر عليه هذا الحادث من وخيم المغبة ، فملك الجلالقة لا يصبر عن الاثثار لبعثته ، وقد اتسع الخرق بينهما فما يمكن استرضائه الا بشروط لا تطاق . فوطن النية على استدعاء المرابطين ثانية والتنازل لزعيمهم عن الجزيرة الخضراء . فدعا ابنه الرشيد ولي عهده ، وافضى اليه بما يعتم عليه . فناع الرشيد وحذر والده خطر المرابطين اذا دخلوا الاندلس وامتلكوا قاعدة فيها . فاجابه المعتمد بكلمته المأثورة : « رعي

الجمال خيرٌ من رعي الخنازير » ، اي انه يفضل ان يكون
 مأكولاً ليوسف بن تاشفين يرعى جماله في الصحراء على ان
 يكون اسيراً عند الفنس يرعى خنازيره في قشالة .

وتلقى امير المرابطين دعوة ابن عباد ، وكان ينتظرها ،
 فحشد جيشه في سبتة ثم اجتاز المضيق الى الجزيرة الخضراء في
 شهر ربيع الآخر ٤٧٩ هـ (آب ١٠٨٦ م) فوجد امير اشبيلية
 قد خف لاستقباله في مائة فارس ووجوه اصحابه . فتقدم المعتمد
 يريد تقبيل يده اظهاراً لطاعته ، فمنعه يوسف ، فتصافحا وتعانقا
 كصديقين لا كتابع ومتبوع . ثم تسلم الزعيم الافريقي الجزيرة
 ليتصرف فيها ، فاحتل بجيشه قلعتها ، واهتم بتعزيز حصونها ،
 وتنظيم حاميتها ، واعداد المؤن والذخائر فيها لتكون له مؤثلاً
 يفرع اليه اذا حالفه النصر في حملته . فاما ام تجهيزها شخص الى
 اشبيلية فلبث ثمانية ايام يؤهب جيوشه منتظراً في الوقت نفسه
 قدوم الامراء الاندلسيين بقواتهم لينضموا اليه . حتى اذا اكتملت
 عدة الجيوش المتحالفة زحفت من اشبيلية تجوز املاك امير
 بطليوس ، فسار فرسان المرابطين في الطليعة وعدتهم عشرة
 آلاف يقودهم داود بن عائشة ، ثم الجيش الاندلسي وعلى رأسه
 المعتمد ، ثم الجيش الصحراوي يتقدمه يوسف بن تاشفين ،
 وبينه وبين جيش ابن عباد يوم واحد ، حتى بلغوا بطليوس
 فنزلوا بظاهرها ، فخرج اليهم اميرها المتوكل ابن الافطس فلقبهم
 بما يجب من الضيافات والاقوات .

وكان الفنس لا يزال يحاصر مرقسطة ، ويرميها بالحملة اثر الحملة

وهي تدافع عن نفسها يائسة، فلما عرف بمجيء المرابطين وزحفهم اليه مع القوات الاندلسية، خاف على طليطلة والممتلكات الجنوبية ان يقع فيها العدو، فرفع الحصار عن العاصمة الهودية، وارتد الى طليطلة يحشد العساكر من قشتالة ولاون وجليقية (Galice) وبسكونية (Biscaya) وأشتوريش (Asturias)، ومن الاراضي الاسلامية التي افتتحها واخضعها، وجاءته النجدة المتطوعة من ولايات فرنسا الجنوبية طامعة في المغنم او مجاهدة في سبيل الدين. ودعا الى معونته حليفه سانجه امير ارغون ونافار، ورمند امير برشلونة. فلبيا دعوته وانضما اليه بقواتهما. فاجتمع لديه جيش عظيم تختلف الروايات الاسلامية في تقديره، فمنها ما يبلغ فيه فيجعله مائتي الف راجل، وثمانين الف فارس. ومنها ما يذهب الى الاعتدال فلا يرتفع به عن الثمانين الفاً، منهم اربعون الفاً من ذوي الدروع الثقيلة. ويقدره ابن الاثير بخمسين الف مقاتل. ويجعله ابن خلكان اربعين الف فارس غير ما انضم اليه من الاتباع. ولا تتفق الروايات الاسلامية على عدد جيوش المسلمين، فمنها ما يرفعه الى ثمانية واربعين الفاً نصفهم من الاندلسيين، ونصفهم الآخر من المرابطين. ومنها ما يهبط به الى العشرين الفاً. ولكنها تجمع كلها على ان عدد المسلمين كان اقل من عدد المسيحيين.

واما الروايات المسيحية فانها لا تشير الى عدد الجيوش النصرانية، وانما تذهب الى تقدير الجيوش الاسلامية بزهاء مائة الف، او تظهر عجزها عن احصائها، فتقول انها كانت كالجراد

المتشر . ويفترض المستشرق الالماني جوزف أشباخ عدداً متساوياً
 للفريقين فيقدر ان كل واحد منهما كان يجمع نحو مائة وثلاثين
 الفاً الى مائة وخمسين . ونحن اذا نظرنا الى الولايات المتسعة في
 مملكة الفنس ، وما يُحتمل استمداده من القوات الحليفة والمتطوعة ،
 لا نستكثر خروجه بمقدار مائة الف لقتال عدو يشعر بخطره
 بعد اجتماع الافريقيين والاندلسيين عليه . وكذلك لا يُعقل ان
 يوسف بن تاشفين يعبر الى الاندلس باقل من اربعين الى خمسين
 الفاً ، وهو مقدم على الحرب في بلاد غريبة منيعة رأينا كاتبه
 عبد الرحمن يجتهد في تحذيره منها . واذا كانت فرسانه عشرة آلاف
 كما ذكرنا ، فلا ينبغي ان يقل عدد الرجالة عن الثلاثين او
 الاربعين الفاً . ثم ان امراء الاندلس في تحالفهم على الكارثة
 المشتركة لا يستغرب ان يبلغ جشدهم خمسين الفاً على اقل تعديل
 ليتخلصوا من عدو مخيف طالما هدد وجودهم ، وقد سححت لهم
 الآن فرصة تمسوها طويلاً حتى حصلوا عليها . فان تكن
 العساكر الصحراوية والاندلسية دون العساكر الاسبانية في مجموعها
 بمسب رواية المؤرخين المسلمين ، فلا يمكن التسليم بأنها تقل عنها
 كثيراً ، فكلا الجيشين قوي متأهب احسن الاهبة ، والموقف
 خطر رهيب ، والمصير غامض لا ينبغي إلا في اللقاء .

وجاءت الانباء ان الفنس زاحف بقواته الى بطليوس ، فنشط
 القواد المسلمون الى ترتيب صفوفهم ومعسكراتهم ، وخطب يوسف
 ابن تاشفين وابن عباد في اصحابهما ، وقام الفقهاء يحضونهم على
 الثبات ، ويحذرونهم من الفشل . ثم جاءت الطلائع تخبر ان العدو

مشرف عليهم صبيحة يومهم وهو يوم الاربعاء . فخرج المسلمون
مبكرين واخذوا مصافهم . واقبلت الجيوش الاسبانية بخيلها
ورجلها تملأ الفضاء ، فنزلت على بضعة اميال من بطليوس في سهل
تتخلله الغابات يعرف باسم الزلاقة (Sacralias) ، وعسكرت
تجاهها الكتائب الاندلسية يفصل بينهما نهر صغير . اما يوسف بن
تاشفين فقد جعل معسكره وراء اكمة عالية ، في عزلة عن معسكر
الاندلسيين . فلما اخذت العساكر الاسبانية محلاتها ارسل زعيم
المرابطين الى الفنس يعرض عليه الدخول في الاسلام ، او تأدية
الجزية ، او مباشرة القتال كما هي السنة . ومن جملة ما قاله في
الكتاب بحسب رواية نصح الطيب : « بلغنا يا أذفش انك دعوت
الى الاجتماع بسا ، وتمنيت ان يكون لك سفن تعبر فيها البحر
الينا . فقد عبرنا اليك ، وقد جمع الله تعالى في هذه الساحة بيننا
وبينك ، وسترى عاقبة دعائك ، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال . »
فما اطلع الفنس على مضمون الكتاب رماه الى الارض
مغضباً ، وقال للرسول : « اذهب فقل لمولاك اننا سنلتقي في ساحة
الحرب . »

ولم يشأ العاهل الاسباني ان يباشر القتال قبل ان يلجأ الى
بعض خدائعه المعهودة ، فبات ليلته لا يحرك ساكناً ، والمسلمون
يحسبون ان المعركة ناشبة حتماً غداً الخميس . فهبوا في الصباح
يستعدون لخوضها ، واذا رسول من الفنس يحمل كتاباً الى يوسف
ابن تاشفين يقول فيه : « غداً يوم الجمعة وهو عيدكم ، والاحد
عيدنا ، فليكن لقاءنا بينهما يوم السبت . » وفي رواية اخرى انه

استثنى يوم السبت ايضاً لانه عيد اليهود وفي المعسكرين كثير منهم، واختار للقاء يوم الاثنين. فاستحسن الامير المغربي هذا التأجيل وخاله عدلاً فوافق عليه ولم يعلم ان الفنس يرمي به الى تعطيل اهبة المسامين ليأخذهم يوم الجمعة على غرة وهم غير مستعدين. ولكن المعتمد بن عباد كان قد بلا مكاييد حليفه بالامس، وذاق سموم اكاذيبه، فلم يطمئن فؤاده الى هذا الاقتراح المريب، واستشعر الحيلة من خلاله، فبث عيوننه في الليل يتجسسون حركات الاسبانيين، فعادوا اليه يخبرونه بانهم اشرفوا على محلة الفنس، فسمعوا ضوضاء الجيوش واضطراب الاسلحة. فبعث الى السلطان يوسف يطلعه على الامر ويستحث نصرته. وكان الفنس قد جعل جيشه قسمين، احدهما يقوده غرسينه، والثاني يتقدم جناحيه شانجه ورمند ويقوم هو في قلبه. فعند السحر حمل جيش غرسينه اولاً يريد مباغته الاندلسيين، واذا داود بن عائشة يصدمه بفرسان المرابطين، ويكسر من حدة هجومه. ولم يكن الاسبانيون ينتظرون هذه المفاجأة فانكفؤوا الى خط دفاعهم الثاني، ثم اصلحوا امرهم وعاودوا الكرة على المرابطين. وحمل معهم الفنس بسائر الجيش، يخترق فرسانه المدرعون بالحديد انخطوط الاندلسية، وقد ارتفع الى السماء صياح الاسبانيين وقرع طبولهم. وكانت الحملة رابعة عنيفة فلم يصبر لها امراء الاندلس، فتراجعوا مفلولين ثم ركنوا الى الفرار، فطاردهم المسيحيون الى اسوار بطليوس. ولم يثبت في الميدان إلا فرسان اشبيلية واميرهم المعتمد بن عباد، والفرسان المرابطون وقائدهم داود بن عائشة، فانهم لبثوا يجاهدون

الاعداء صابرين على عض السلاح ، مستهينين بالموت ، لا يطلبون
 النجاة . وأظهر ابن عباد من ضروب البسالة ما يملأ النفس اعجاباً .
 فقد احاط به الاسبانيون من كل جهة ، فانكشف بعض اصحابه ،
 وفيهم ابنه عبد الله ، فأخذ يقتحم الصفوف معرضاً نفسه للوبال ،
 فشح رأسه ، وجرحت يمينه يديه ، وطعن في احد جانبيه ،
 وعقرت تحته ثلاثة افراس ، وهو يجالد مستأسداً لا يترك المعركة ،
 ولو لم ينفس عنه داود بن عائشة بعض الشيء لكانت عليه
 المحنة اشد وأقسى . فقد جاهد القائدان بفرسانهما اروع جهاد
 حتى لم يبق لهما امل من الدفاع ، فارتداً باصحابهما الى الاسوار
 ملتحقين بامراء الاندلس الذين انهزموا في بدء المعركة ، وأسلموا
 محلاتهم ، فاستفاد منها الاعداء في انقضاضهم وتطويق الذين صبروا
 وصابروا من المسلمين . وتبعهم الفرس بالمطاردة ليجيز عليهم ،
 فتدفقت وراءهم فرسان اسبانية تضرب في اقتنائهم ، وبارق النصر
 يلوح لها مشعاً لماعاً . وظن الفرس واهماً ان الكسرة وقعت
 على جيوش المسلمين باجمعها ، وان يوسف بن تاشفين والصحراويين
 في جملة المندهرين ، ولكن ساء فآله ، فبينما هو يطارد المهزومين ،
 واصحابه يتباشرون بالظفر ، اذا بالصرخة تتعالى وراءه في معسكره ،
 وقرع الطبول يتجاوب في الهواء . وكان زعيم المرابطين قد حرج
 بعساكره من وراء الائمة ، وامر قائده ابا بكر ان يخف بقوة
 من البربر لمعونة المعتمد بن عباد والاندلسيين . وسار هو بفيالقه
 الضخمة الى معسكر الاسبانيين ، فأناخ عليه ، فأوقع بحاميته ،
 واحرق الخيام ، واتهب ما فيها من الذخائر والسلاح . وضجت

اصوات طبوله، فاستكّت لها آذان الفنس ورجاله . وجاءه النبأ المشعوم وهو في نشوة الظفر يتعقب الاندلسيين ، ويبعث البرابرة الذين جاؤوا لنجدتهم . فترك المطاردة ، وارتد بجيوشه الى المعسكر لينقذه من ايدي المرابطين . وأبصر يوسف بن تاشفين عنف الكرة ، فجاد عنها خارجاً لهم عن المحلة . ثم كر عليهم فأخرجهم . ثم كروا عليه فأخرجوه . وتوالت الكرات والمعسكر ينتقل من يد الى يد . وكان امير المرابطين يمر بين مسافات المسامين يحرضهم ، ويقوي نفوسهم على الجهاد والصبر ويقول : « يا معشر المسامين ، اصبروا لجهاد اعداء الله الكافرين ، ومن رزق منكم الشهادة فله الجنة ، ومن سلم فقد فاز بالاجر العظيم والغنيمة . » فقاتل المسامون في ذلك اليوم قتال من يطلب الشهادة ويرغب في الموت . وقاتل المسيحيون اصدق قتال ، وصبروا اعظم الصبر ، وفي نفوسهم ما في نفوس اعدائهم من الحمية للدين والوطن . فتساقطت ألوف الضحايا من الفريقين حتى غصت بهم ساحة القتال ، وخاضت الخيل في برك من الدماء ، وسقط فيها جماعة ففرقوا في دم قتلاهم . وصارت الارض ترتجف من وقع حوافر الجياد ، وانعقد العجاج فأظلم النهار .

وكان المعتمد بن عباد وداود بن عائشة قد جمعا شمل فرسانهما بعد ان كف الفنس عن المطاردة ، فارتدا بهم في اثر المسيحيين ، وارتد بعدهما المنهزمون من امراء الاندلس وقد اشتدت عزائمهم حين تنسموا ريح النصر ، فأخذ الاسبانيون من الجانبين ، فتناهبتهم سفار السيوف تحصدهم من الامام والوراء ، وهم لا

يفترون عن المكافحة غير مصدقين انهم خسروا المعركة ، يكرون على معسكرهم يستعيدونه من المرابطين ، ثم ينتزعه المرابطون من ايديهم ، ثم يرجع اليهم ، وهم في الوقت نفسه يقاومون الاندلسيين في مؤخرتهم ، حتى دنت ساعة الغروب ، فكره يوسف بن تاشفين ان يأتي الظلام ويفصل بينه وبينهم على غير نتيجة ، فأمر رجاله السودان ، فترجلوا عن مطاياهم وعدتهم اربعة آلاف ، بايديهم السيوف والدرق ومزاريق الزان ، فاقتحموا خيول الاسبانيين ، وأعملوا الطعن في بطونها وصدورها فازورت بفرسانها وخامت عن المعترك من ألم الجراح . وحملت جيوش المسلمين حملة صادقة فانهزم الاسبانيون متخليين عن معسكرهم لا يأملون العودة اليه ، فاستحرق القتل فيهم فلم يفلت منهم غير طويل العمر . وابي الملك النفس ان يهرب فلت يجمع صفوفه ويقاقل مستتبلاً مخاطراً بحياته ، فلحقه احد السودان فلصق به وطعنه بخنجر فاثبتته في فخذه ، وهتك حلق درعه ، فبادر اليه خمس مائة من فرسانه الدارعين فأنقذوه ، ولكنه رفض ان يترك ساحة القتال ، وآثر الموت على ان يرضى بالهزيمة . فساروا به على كره منه الى تل مما يلي المعسكر ثم انحدروا الى قورية يستريحون الظلام .

وخسر الاسبانيون اكثر جيشهم في هذه الموقعة . وكذلك كانت خسارة المسلمين جسيمة لان الضائقة لزمتهم معظم النهار . بيد انهم وجدوا تعزية في النصر البهيج ، فأقاموا مهرجان الفرح مساء يومهم ، وبعث المعتمد بن عباد حماسة الى عاصمته تحمل رسالة البشرية لولده الرشيد ، فقرئت على الناس في المسجد الجامع ،

واحتفلت اشبيلية بالنصر في اليوم نفسه على ما بينها وبين بطليوس
من البعد. وبات الجيش ليلته في ميدان القتال حتى تنفس الصبح ،
فجمعت الوف من رؤوس الاسبانيين على شكل مأذنة ، وقام
فوقها المؤذن ينادي : حي على الفلاح ! وانتهت معركة الزلاقة بيوم
واحد الجمعة ٢٣ كانون الاول ١٠٨٦ فدونت حدثاً عظيماً في
تاريخ الاسلام ، فهي وان تكن فتحت ابواب الاندلس لمرابطي
افريقية ، لقد اثبتت فيها اقدام المسلمين مدى اربعة قرون .

رذريق والمرابطون

عاد امير المساميين من معركة الزلاقة يجرر ذيل المجد ومن
حواله ملوك الطوائف يسعون اليه بتحايا الشكر وعرفان الجميل ،
وهم بين سكرة النفس الغائبة ، وصحوة الفكر الحاضر ، تهزهم
اهازيج العساكر المنتصرة فيستسلمون للغبطة والتميم ، ثم يلوح
لهم وجه يوسف بن تاشفين في عبوسه واستعلاء نظراته ، ويسمعون
اصوات المرابطين ترتفع على اصوات الجنود الاندلسية ، فترعد
الغبطة في قلوبهم ، ويستحيل اليمن طيرة وشؤماً . يشوقهم ان
يتشفوا غرة الجو مشرقاً صافياً بعد ان تلاشت عاصفة الاسبان
وتمزقت سحائبهم في الشمال . فتروعهم الغمامة مطلة من الجنوب ،
كثيفة سوداء . ينظرون الى زعيم الملتئمين يسير في المقدمة عظيماً

بقوته وبطشه ، عظيماً بورعه وتقشفه ، فلا يملكرون النفس عن
 الاعجاب بامير مسلم انقذ الاندلس المسلمة ، وابتعد عنها خطر
 المسيحية ، فيودون لو ينطق بكلمة تبدد اوهامهم وتبعث الطمانينة
 في الصدور لينقلب هذا الاعجاب حباً ومودة . ولكنه صامت
 لا يحدثهم بشيء عن اماراتهم ومصايرها ، فاذا هم بكره منهم
 يخافونه على بلادهم اكثر مما يخافون النفس والقشتاليين .

ولم يكن خوفهم في غير محله ، فان سلطان مراکش قد عقد
 نيته على البقاء في الجزيرة ليشرف من كثر على الدويلات العربية ،
 ويتابع جهاد الاسبانيين ورد غاراتهم . ولعله ابتداء منذ اليوم
 يعتر الاندلس ولاية من اعمال افريقية لما رأى من عجز امراءها
 وضعفهم وتحاذهم . غير انه فكر في شيء وفكرت الاقدار في
 شيء آخر . ففيما هو يتأهب للقيام بغارة جديدة جاءه نعي ولده
 ابي بكر سير ، وكان قد اقامه نائباً عنه في مراکش يدير
 امورها ، فاضطر الى الاسراع في العودة لتنظيم حكومته . إلا انه
 ترك الجيش الصحراوي في الاندلس برئاسة قائده سير بن ابي
 بكر ، فاستأنس ملوك الطوائف ببعض الشيء ، وسرهم ان يبتعد
 الظافر عن ارضهم ، منصرفاً الى العناية بشؤون مملكته الافريقية ،
 فاستأنف بعضهم الغارات على الامارات الاسبانية والبرتغالية يعاونهم
 جيش المرابطين ، فكانوا ينجحون في مكان ويخفقون في مكان
 آخر ، ولم يخطر لهم في بال ان النفس السادس ستقوم له قائمة
 بعد موقعة الزلاقة وقد خسر فيها نخبة فرسانه ومعظم جيشه
 وعتاده . وبقينا لو اصاب هذه الكارثة رجلاً غيره لحطمت عزيمته

وقضت على مساعيه . ولكنها اصاب جباراً مريداً لا يسهل على الاحداث تدويحجه واقعاد هاته . فانه ما انفك ، منذ هزيمته المشؤومة ، يستنفر الاسبانيين والفرنسيين حتى تم له بعد عام حشد جيش عظيم في عدته وعدده ، فخرج به سنة ١٠٨٧ م مغيراً على الاندلس ، مخرباً فيها ، مفتتحاً بعض مدائنها ، مهدداً ملوكها ولاسيما المعتمد بن عباد . وعبثاً حاول هؤلاء الامراء ان يدفعوا البلاء عن ديارهم ، وهم على تحاسدهم ، وطمع قلوبهم في ضعيفهم ، لا يخلصون النية للتعاون المشترك ، يتحالف منهم فريق ، ويتخلف فريق آخر . ولا يتلكأ بعضهم ان يكيد لبعض ، فكأن يوم الزلاقة أنساهم ما جر عليهم تفسخهم بالامس ، وكأن بعد يوسف بن تاشفين اغفلهم عما يهددهم في الغد . وكان المعتمد اشد هم طموحاً الى بسط سلطانه والاستئثار بالنفوذ لاعتداده عليهم بالقوة واتساع الملك . فحدثته نفسه بخطة خرقاء لم يحسب حساباً لنتائجها . فرأى ان يعبر المضيق الى المغرب ويشرح لامير المسلمين احوال الاندلس وقمود امراءها عن حمايتها ، راجياً منه ان يوليه قيادة العساكر الصحراوية ، ليستطيع بها جمع الولايات وضم اشرافها ومن ثم مقاومة الامراء المسيحيين . وفاته ان سلطان مراکش ينتظر هذه الفرصة لتحقيق رغائبه في الاستيلاء على الاندلس وجعلها من اعمال دولته . فعاد من عنده خائباً نادماً لان الزعيم المرابطي يريد ان يحمل بنفسه عبء مجاهدة الاسبانيين ، ولعله تلقى رسائل من علماء الاندلس يستنجدونه لانقاذها ، فنشط يجمع العساكر ويدربها حتى تهباً له بجفيل كثيف ، فعبر به بحر الزقاق

الى الخيرة الخضراء في حزيران ١٠٨٨ (ربيع الاول ٤٨١ هـ) ،
وما وكده الامراء المسيحيون وخدمهم ، بل ملوك الطوائف قبلهم .
على انه لم يجد من الحكمة ان يناصبهم العداة فوراً فباشر الحرب
اولاً مع الاسبانيين دون ان يدعوهم الى مساعدته ، ثم ارتد الى
غرناطة فاحتارها واعتقل صاحبها عبد الله بن بلكين بن باديس ،
ونفاه الى انجات قرب مراکش ، متهماً اياه بانه حليف لالفس .
ورأى ان الجيش المرابطي لا يكفي للقيام بحركات واسعة يزيل
بها ملوك الطوائف ، فارتد الى سبتة واخذ يحشد العساكر ويجيزها
الى قائده سير بن ابي بكر في غرناطة حتى اجتمعت له قوات
جرارة ، فسيرها في اربع جهات لقتال المعتمد بن عباد ، والمعتم
ابن صمادح صاحب المرية (Almería) . وكان المعتمد يتوقع غارة
المرابطين على مملكته ، ويستعد لها ، فهب الى مدافعتهم ، يخوض
المعارك بنفسه ، ويبيح احسن البلاء . ولكن ما حيلته وجيشه
ضعيف امام الفيالق الصحراوية الطاحنة ، فمن الجنون ان يغربه
ويتابع حرباً فتيجتها خاسرة . يعرف كل ذلك ، ويعرف ايضاً ان
الحرب لا مهرب منها إلا اذا تنازل عن عرشه ليوسف بن تاشفين .
وكيف له بالتنازل عنه ، وهو به ضنين ، يفضل ان تحرق الرماح
جثمانه وان يموت الجيش في مكانه على ان يخفض الرأس لابن
الصحراء ! ترى بمن يستغيث ، والى من يفزع ؟ أيدعو ملوك
الطوائف لنصرته ، وفيهم الحاسد الشامت ، من يسر بنكته ، او
الخائف المرتعش يشتغل بتحسين ارضه ولا يجرو ان يبادي الملتزمين
بالعدوان ؟ ما ابعد الامل عند ملوك الطوائف ، وما اقربه عند

الفس عدوّه اليوم ، وحليفه بالامس ، فاماذا لا يهرع اليه بنداؤه ، وهو يشعر شعوره بخطر الغزاة الغرباء ؟ وما كاد صوت الاستغاثة يبلغ عاهل قشتالة حتى بادر الى نجدته باربعين الف رجل ، وعشرين الف فارس يقودهم الكونت غوميز (Gomez) ، فالتقاه المرابطون عند قرطبة فهزموهم بعد معركة دامية .

ولبت المعتمد يدافع عن اشبيلية دفاع اليأس المستميت ، باذلاً آخر ما لديه من القوى ، والمرابطون يأخذونه من كل جهة الى ان دخلوها عنوة في ايلول سنة ١٠٩١ (رجب ٤٨٤ هـ) ، فاعتقلوه وساقوه واسرته الى اغمات . وسقطت المرية على اثر اشبيلية وزال عنها ملك المعتصم بن صمادح . ثم اتاخ المرابطون على مرسية (Murcie) ، وافتتحوا دانية (Dénia) وشاطبة (Jativa) ، وما زالوا يتقدمون من مدينة الى مدينة حتى انتهوا الى بلنسية وهي يومئذ في حكم القادر بن ذي النون . وكان الفس السادس قد اقطعه هذه الامارة بدلاً من طليطلة التي انتزعها منه ، وجعله تحت حمايته يتقاضاه الجزية ويندود عنه اذا اعتدي عليه . فلما اغار المرابطون على بلنسية انضمت قوة من النصارى الى المسلمين تدافع معهم عنها ممتنعين بخصونها . ولكن المهاجمين استطاعوا ان يأخذوها في غير مشقة لان القاضي ابا احمد بن جحاف المعافري فتح لهم ابوابها ، وامدهم بجماعة من اصحابه تسهل لهم امتلاكها ، لطمعه في الامارة وكرهه للقادر بن ذي النون صنيعه الاسبانيين . وكافأ المرابطون القاضي فجعلوه والياً على بلنسية من قبل سلطان مراکش ، فما كان منه إلا ان بادر الى الانتقام من القادر ، فما

زال يبحث عنه ويطارده حتى تمكن منه فقتله ثم انتهب قصره
واستولى على امواله ، فزالت بموته دولة ذي النون (١٠٩٢ م —
٤٨٥ هـ) .

على ان سقوط بلنسية في ايدي المرابطين لا يعد خسارة
للنوبين وحدهم ، بل هو خسارة لالفنس السادس ايضاً ، وبالتالي
خسارة كبيرة للفارس الاسباني السيد رذريق (Rodrigue le Cid) .
فقد كان ملك قشتالة يعتبر بلنسية امارة تابعة له ولا ينظر بارتياح
الى تقدم الافريقيين في الاواسط الشرقية من الاندلس حيث
ينبسط نفوذه . وقد رأيناه يبادر الى نجدة المعتمد بن عباد لكي
يستوقف زحف المرابطين ويقضي على حركاتهم في الجنوب قبل
ان تتسع وتنتشر ، فلم ينجح في مسعاه فاضطر جيشه الى التقهقر
عن قرطبة مدحوراً . وراحت العساكر الصحراوية توغل في الجانب
الشرقي ناهضة من مدينة الى مدينة حتى استولت على اكثر
القواعد الحصينة هازمة امامها القوى الاندلسية واعوانها
الاسبانيين ، ومن بينهم الكونت رذريق وفرسانه الاشداء .

وكان هذا الفارس لا يقل حماسة عن اميره الفنس في مقاومة
المرابطين ومصابرتهم ، ولا يقل عنه غضباً لسقوط الولايات الشرقية
لما له من النفوذ فيها ، ولا سيما بلنسية التي بسط عليها سيادته وجعلها
محط آماله ومدار مطامعه ، سواء لديه ارضي ملكه أم سخط ،
فانه من اولئك الابطال المغامرين الذين يتعشقون الشهرة ، ولا
ينكصون عن طلبها مهما يقيم دونها من الاهوال . وقد كان الفنس
ناقماً عليه حتى انه نفاه عن قشتالة ، وازال ما به من نعمة سابقة .

فما زاده النبي والاضطهاد إلا عزمًا واقدامًا . فبنى مجده بذكائه
 وخذ سيفه على كره من العاهل القشتالي ، وبأت بانخية كل محاولة
 قام بها الفنس لخذلانه واخراج بلنسية من يده . وجدير بنا ان
 نلم بطرف من حياة السيد واخلاقه قبل ان نتحدث عن مواقفه
 في بلنسية مع المرابطين لتنجلي للقراء تلك الشخصية التي بلغت
 من سيرورة الذكر ما لم يبلغه الفنس السادس نفسه . فقد تغنى
 ببطولتها الشعراء والمنشدون ، ونسجت حولها الروايات والاساطير
 فكانت غذاء للادب الاسباني في القرون الوسطى ، وغذاء من
 بعده للشاعر الفرنسي كورناي في مسرحيته الخالدة « السيد » .

هذا الفارس القشتالي يمثل فروسية عصره اصدق تمثيل
 بفصائلها وعيوبها ، أوتي من القوة البدنية والشجاعة والاقدام
 واستهانة الموت ما يصح ان توسم به عصور البطولة . وساعده
 ذكاؤه وقوة ارادته على التبصر في الامور وتصريفها والنظر في
 عواقبها . كانت فروسيته تقترن بالتدين وحرارة الايمان ، يصوم
 ويصلي ، ويعنى بالحفلات الدينية ، ويقدم الهدايا للكنائس والاديرة .
 فهو على خلاف ما تصوره المستشرق دوزي اذ جعله لا دين له
 ولا شرع . فان روح الدين كانت اكبر محرك لنفوس الفرسان
 في عصره ، بسبب الحروب الصليبية التي امتدت من الغرب الى
 الشرق . ولعل دوزي نفى عنه العقيدة المسيحية لكثرة ما اقترب
 من الجرائم والفظائع التي يستكرها الدين وينهى عنها ، او لعله
 يرمي الى تقلبه في السياسة الوطنية فحيناً يحارب المسلمين مجاهداً ،
 وحيناً يضع سيفه في خدمتهم لينصرهم على المسيحيين ، وفي كلا

الحالين لو عاد المستشرق بالسيد الى عصره لما وجده غريباً عنه .
 فاحراق القاضي بن جحاف حياً ، والتمثيل بالاسرى او القاؤهم
 الى السكاب الضارية ، كلها اعمال وحشية بحد ذاتها ، تنفر منها
 النفس الانسانية في صفائها . إلا ان رذريق لم ينفرد بها عن غيره ،
 فانما هي من عيوب فروسية العصر ، وتاريخ الاندلس حافل
 بامثالها وبابشع منها ، وتقرن على الغالب باحوال خاصة كدافع
 الانتقام ، او الحاجة الى الارهاب . ولا يصح في ما عدا ذلك
 ان نجد السيد من الشعور الانساني ، والعاطفة المهذبة تجريداً
 تاماً ، وفي اخباره ما لا يسمح لنا بهذا الحكم الجازم ، كخبره
 مع المرأة النفساء ، ذكره لويس برتران في كتابه تاريخ اسبانية ،
 وهو ان السيد عندما نفاه الملك سار بفرسانه وخدمه هائماً بين
 قشتالة وسرقسطة . فذات يوم امر بان تقوض الخيام للرحيل ، فما
 كادت تطوى وتحمل حتى سمع بعض رجاله يقولون ان زوجة
 طاهيه قد وضعت في تلك الساعة . فسألهم حالاً : كم تلزم سيدات
 قشتالة السرير عادة بعد الولادة ؟ فأعلموه . فقال : ادن نبقى هنا
 طول هذه المدة ، فلتنصب الخيام .

وبقي السيد في مكانه لا يتحرك منه حتى نهضت زوجة الطاهي
 من فراشها ، مع ان الخطر كان محققاً به ، لانتشار الاعداء وتسربهم
 في تلك الاصقاع .

وكذلك تقلبه في السياسة الوطنية لم يكن غريباً في نوعه
 عندهم . فان تاريخ اسبانية يحدتنا عن كثير من الفرسان
 المسيحيين والمسلمين كانوا يفعلون فعله ، مدفوعين بحب المال

والشهرة ، او شهوة الانتقام ، او روح المغامرات ، الى محاربة ابناء ملتهم في صفوف اعدائهم ، والكونت رذريق فيه جشع كبير الى المال والشهرة وكانت شهوة الانتقام تحفزه الى طلب المعالي بعد ما فقد حظوته عند الفنس وأبعد عن بلده . وهو الى ذلك لا تنقصه روح المغامرات ، واسبانية يومئذ في حالتها السياسية المضطربة ، وما يهددها من الخطر الشامل لتصارم ولاياتها ، وتباغض حكامها ، تفرض على الامراء المسلمين والمسيحيين ان يجتمعوا في مواطن مختلفة متحالفين مع ما بينهم من حروب ازلية وعداء قديم ، على ما في هذا التحالف من تكافؤ او غير تكافؤ ، كما حالت بلنسية وسرقسطة قشتالة ، وكانتا في الوقت نفسه تؤديان لها الجزية ، وتعتمدان على مساعدتها اذا نزل بها عدو مغير . فغير عجيب ان يقاتل السيد في صفوف حلفاء قومه وان كان العدو الذي يقاتله من المسيحيين ، او ان يقاتل في غير صفوف حلفائه وهو حاقد على اميره ، مغامر باسل يطمح الى المجد ويطمع في المال ولديه جيش خليط من المرتزقة لا يقوم على المسيحيين وحدهم بل فيه عدد عظيم من الفرسان المسلمين . واذا عدنا الى اخباره اول حياته نجد مع حبه للمال وسعيه الى جمعه لا يجرّد حسابه إلا في سبيل اميره .

ولد هذا الفارس في قرية بيفار (Vivar) على مقربة من برغش (Burgos) نحو سنة ١٠٤٥ م يكتنفه النسب الكريم من ناحية ابيه دياغو او دياز (Diego ou Diaz) سليل كالفو (Calvo) بعض كبار القضاة في قشتالة . ثم من ناحية امه التي

تنتمي الى اسرة كبيرة في اشتوريش (Asturias) ، وكان والدها صاحب اقطاعيات في الوادي الجوفي^١ ، اي وادي دويره (Dueiro) . والظاهر ان دياغو توفى والغلام في نحو الثالثة عشرة من سنه على حد تقدير لاوي بروفسال اذ يجعل وفاته سنة ١٠٥٨ ، فورث رذريق املاكه ، ثم اتصل بالدون سانجه (Sancho) بعد ما قسم فردينان مملكته بين اولاده الثلاثة ، فأتيح له ان يتأدب بادب القصر شأن ابناء الامراء ، وقلده سانجه رتبة الفروسية ، فحارب معه سنة ١٠٦٣ مناصراً المقتدر بن هود ملك سرقسطة على الارغونيين ، فكانت اولى معاركه بجانب المسلمين على المسيحيين . فلما نشب الخلاف بين الاخوة الثلاثة ، وقام الواحد منهم ينازع الآخر نصيبه من ملك ابيه ، وقعت بينهم حروب اهلية ، فقاتل الفتى رذريق تحت لواء سانجه ، حتى تم النصر لاميره ، فكافأه على بلائه بمصعب رفيع في القصر ، واناط به قيادة الجيش ، وصاحبها يعرف بصاحب العلام (Alferez) ، ولُسقب بالكبيادور (Campador) اي القائد الاعلى ، او رئيس الغزوات ، على رأي لاوي بروفسال ، ويسميه المقرئ في نقح الطيب القنبطور ، ويعرف ايضاً عند مؤرخي العرب بصاحب الفحص^٢ . والمراد به الرئيس

١ الحوفي : اي الشمالي في اصطلاح المغربيين .

٢ الفحص : بالمغرب من ارض الاندلس مواضع عدة تسمى الفحص . قال ياقوت : « وسأت بعض اهل الاندلس ما تعنون به ؟ فقال : كل موضع يسكن سهلاً كان او جبلاً بشرط ان يزرع نسيبه فحصاً ، ثم صار علماً لعدة مواضع . اما في لغة العرب ، فالفحص شدة الطلب خلال كل شيء . »

الموكول اليه امر الغارات على فحوص الاعداء، وانتساف زروعها .
غير ان حياته في القصر لم يكن من شأنها ان تمنحه الشهرة
التي اعدتها له الاقدار مع كثرة الحروب التي شهدتها في عهد
ملكه . ثم اغتيل شانجه في حصار زمورة (Zamera) الثائرة
عليه سنة ١٠٧٢ ، واتهم بمقتله اخوه الفنس ، وكان هذا قد نفاه
شانجه الى طليطلة ، فرجع الى مملكته لاون واعلى عرشها ، و اراد
ان يضم اليه قشتالة نصيب اخيه المقتول ، فتمنع القشتاليون عن
مبايعته او يقسم على براءته من دم اخيه ، فرضي الفنس ، وذهب
في جماعة من اشراف قشتالة الى كنيسة سانتا غادية (Gadia)
في برغش لتأدية اليمين ، فلم يجرؤ احد منهم على تحليفه سوى
الكونت رذريق ، فحقد عليه ، ولكنه كان يتقي جانبه لما يعلم
من بطشه ودهائه . فآثر ان يأخذه بالدين على ان يجاهره العداء ،
وان تكن هذه الظواهر لا تخدع الفارس الذكي ، فتزبل من
نفسه الريبة بعاهله الجديد . فقد رأى حيراً له ان يتخلى عن
منصبه في الجيش ، ويترك القصر ، دون ان يخرج عن طاعة
الفنس ، او يقطع صلة التابع بالمتبوع .

وكان لالفسن ابنة عم يقال لها الدونا لمانا دياز ،
وتعرف بشيامة ، وهي بنت دياغو بن رذريق كوت اوفياو ،
وحفيدة الفنس الخامس ملك لاون ، فشاء ان يزوجهما
رذريق ليجمع بهما اشراف لاون وقشتالة ، ويزيل ما بين
البلدين من العداء ، فقبل الفارس القشتالي عروسه اللاونية من
يد ملكه بعامل السياسة ، لا بدافع الحب الذي يصوره

كورناي في مسرحيته ، ويجعل منه صراعاً عنيفاً بين العاطفة والواجب في نفس البطل العاشق ، ثم في نفس معشوقته . فوالد شيانة لم يلطم والد السيد ، وهذا لقي حتفه من عهد بعيد ، ولا رذريق اضطر الى قتل والد شيانة ، وانما تم الزواج بينهما في جو هاديء ، لا تلوح فيه بارقة وجد ، ولا عاصفة التبايع . وهذا لا يمنع ان يكون الزوجان تبادلوا المودة والاخلاص مع طول الالفه ، كما يحصل عادة بين الرجل والمرأة ، اذا اقترنا ، وقلباها خليان من حب او كره .

على ان هذا الزواج لم يُعَد الى رذريق سابق حظوته في القصر ، فما لث ان رجع وشيانة الى فريته بيفار لا يخرج منها إلا اذا دعاه اميره لبعض المهمات . وكان الفنس يوفد كل سنة بعثة الى طليطلة واشبيلية لاستئداء الجزية من الدولتين الاسلاميتين ، فأوفد السيد الى اشبيلية في اواخر سنة ١٠٧٩ ليأخذ الجزية من صاحبها المعتمد بن عباد ، فلما بلغها رأى الحرب دائرة بينها وبين الغرناطين ، وعلى غرناطة يومئذ الامير عبد الله بن باديس بن زيري ، وقد امده الفنس بنجدة من الفرسان الاسبانيين تنصره على المعتمد ، لانه لم يكن مطمئن النفس اليه لانبساط ملكه بين ملوك الطوائف ، وطمعه في التوسع ؟ وكان قائد الحملة الاسبانية الكونت غرسيه اوردونه ، عدو رذريق ومنافسه ، فخاض السيد المعركة بجانب الاشبيليين ، محتجاً بانهم حلفاء مملكه الفنس ، فهزم العساكر الغرناطية ، واسر جماعة من الاشراف المسيحيين بينهم غرسيه ، ولم يطلق سراحهم إلا بعد ثلاثة ايام فقفلوا الى بلادهم مذلولين

منكسي الرؤوس . وتقاضى رذريق الجزية من ابن عباد ، وحملها
الى قشتالة سنة ١٠٨٠ .

فغير عجيب ان يكون له من غرسيه واعوانه خصوم
يناصبونه العدا ، ويكابدونه في السر والعلانية حتى اوغروا صدر
الفس عليه ، فبات يتحين الفرص للنيل منه ، واضعاف شأنه .
فاتفق ان اغار السيد على طليطة ، دون استئذان سيده ، فأخن
واوجع ، وعاد بالاسرى والغنائم ، فثار ثائر الاشراف القشتاليين
لاستقلاله بالامر ، وصغى اليهم الفس ، وبدا له ان يطرده من
اراضي قشتالة ، ففتحت له ابواب المجد في منفاه .

ولم يسلم سبب طرده من الالتباس والخلاف فيه ، فمنهم من
يرجعه الى حقد الملك عليه من اجل اليمين التي لقنه اياها في
كنيسة برغش ، ومنهم من يعود به الى غارته على طليطة وايقاعه
بخلفاء عاهله ، او الى طمعه في الثروة ، وانه اخذ مالا كثيراً
من المعتمد بن عباد . ويتفق لويس برتران والمستشرق الالماني
جوزف اشباخ على القول بان فارساً ممتازاً عظيم الكبرياء كثير
المطامع مثل السيد لا يرضى ان يظل مغموراً في كنف ملك
يخسه حقه ويغار منه . فهو لا بد ان يختار هذا النفي بنفسه ،
ويقصد اليه قصداً لم يفرض عليه ، ليسعى وراء الشهرة التي
يتعشقها ، ويبدى عليها قصور احلامه .

ومهما يكن من شيء ، فان رذريق هجر موطنه نحو سنة
١٠٨١ ، مبقياً زوجه واولاده في بيفار ، وسار برجاله الى
برشلونة عارضاً سيفه على اميرها رامون بيرنغر الثاني (Berenguer)

فلم يجد عنده قبولا ، فتركه وولى وجهه شطر سرقسطة ، فاتصل
بصاحبها المقتدر بن هود وكان حليفاً لالفنس فاحسن وفادته .
وتوفي المقتدر في السنة نفسها ، فانتقل الحكم من بعده الى
ولديه المؤمن والمنذر فولي الاول سرقسطة واعمالها ، والثاني
دانية وطرطوشة (Tortosa) ولاردة (Lérida) ثم نشب
الخلافا بينهما ، فاستنجد المنذر كونت برشلونة وملك ارغون
مستنصراً بهما على اخيه فامداه بالعساكر . فخرج اليهم رذريق
بفرسانه وفرسان المؤمن فاشتبك واياهم في معارك دامية كتب
له النصر فيها ، فانهزموا امامه ، فطاردهم واناخ على بلادهم
فدمر واتف ونشر الروع بين المسيحيين والمسلمين . ويروى
انه اسرى يومذاك بيرنغر كونت برشلونة ، وكان هذا قد نذر دمه ،
فابى الا ان يقابله بالاحسان ، معاملة الفارس الشريف لصنوه ،
فاطلق سراحه دون ان يطلب منه الفداء . ثم رجع الى سرقسطة
تظله رايات المجد والظفر فاستقبلته المدينة هاتفة له ، وانزله
المؤمن منزل الكرامة ، وصار المسلمون حلفاؤه يلقبونه بالسيد
من ذلك الحين . غير ان لاوي بروفنسال يقول ان لقب السيد
ليس له ذكر في الروايات المسيحية القديمة ولا في الروايات
العربية ، وانما يذكر لقب القنبطور . وفي ذلك ما فيه من
الشبهة كما لا يخفى .

ولم يطل حكم المؤمن فانه توفي سنة ١٠٨٥ فخلفه ابنه
المستعين مترسماً خطة ابيه في اكرام السيد والاعتماد على سيفه
وخبرته ، الا ان الفارس القشتالي لم يهجر بلاده ليكون تابعا

لامير غير اميره بل ليحقق احلامه ، واي احلام تراوده سوى الامارة والسلطان ؟ فرمى بعينه الى الولايات المجاورة يتفحصها فوجد بلنسية اقربها منالاً واحكمها موقعاً ، فالقادر بن ذي النون ضعيف لا قبل له بالدفاع عنها ، فانقض عليها بفرسانه فافتتحها ، والظاهر انه كان على اتفاق مع المستعين ، ولم يشأ ان يخلع القادر بل استبقاه مراعاة للمسلمين ، ووضع تحت حمايته . وارسل في الوقت نفسه الى الفنس السادس يبايعه على الطاعة ، لثلا يثير حفيظته ، وبلنسية معدودة في جملة الامارات الخاضعة لمملكته . ومن الطبيعي ان لا يرتاح الفنس الى عمل السيد واستبداده بامارة حليفه وتابعه ، وهو ناغم على هذا الفارس الطريد فكيف يأمن جانبه اذا قويت شوكته في بلنسية وما جاورها ؟ وقد كان حقيقاً به ان يرميه بحملة تأديبية تنزع بلنسية من يده ، وتحرر القادر من سلطانه ، الا ان الاحداث الخطيرة التي طرأت على الاندلس اضطرتته الى التفاوض عنه ، ذلك ان المرابطين اخذوا يتقدمون في الولايات الجنوبية والشرقية نائرين تيجان ملوك الطوائف ، مغيرين على الاراضي الاسبانية . فانخطر الداهم اعظم من ان يحمل الملك القشتالي على التفكير في محاربة السيد ومعاقبته ، وقد تكون الاستفادة من سيفه في مثل هذه الاحوال اولى وانفع . ولم يخطيء الفنس في حدسه ونظره الى الامور ، فان السيد نفسه كان يشعر شعور مليكه ، وتساوره المخاوف من زحف المرابطين وانتصاراتهم الصاعقة ، فاذا بهذا الشريد المغامر يصبح بطلاً قومياً لا هم له الا ان

يرد الاعداء الغرباء عن بلاده ويحول دون تجدد النكبات التي شهدتها اسبانيا المسيحية في اوائل الفتح . ومن هنا تبتدىء حياته الوطنية اللامعة تتغنى بذكرها وتخلدها القصص والقصائد والانشيد .

دخل المرابطون بلنسية والسيد غائب عنها ، فارتد اليها عندما بلغه الخبر ، وهو مصمم على استرجاعها ، مهما كلفه خطبها ، ليجعل منها قلعة حصينة في وجه الملتهمين تمنعهم من التوغل في اولايات الاسبانية ، فذشط الى تحصين القلاع الجبلية المحيطة بها وتعزيز حامياتها . ودعا الى مخالفة الامراء المسلمين في السهلة وشاطبة ودانية ومربيطر (Murviedro) فلبوا الدعوة لما يضمرون من الكره للمرابطين . ثم ضرب الحصار على المدينة بجيش هام من النصارى والمسلمين ، فصبرت بلنسية عليه مدة طويلة تقاوم الجوع يائسة لان المرابطين الذين جاؤوا لنجدها هزموا وشتت شملهم . فثار الشعب اخيراً على القاضي جعفر بن جحاف حاكمها الجديد واجبروه على التسليم ، فلم يجد مناصاً من مفاوضة رذريق على شروط تضمن السلامة له ولاسرتة ولسكان المدينة اجمع . فقبل السيد هذه الشروط ، وفتحت له بلنسية ابوابها في ايار سنة ١٠٩٤ فدخلها دون ان يتعرض لاحد باذى . وخطب فيهم فقال :

« جعلت لكم يومي الاثنين والخميس مواعدين لسماع مطالبكم . فمن كان له حاجة معجلة ، فبوسعه ان يدخل علي متى شاء ، فاسمع له ، لاني لن احتجب عنكم كما كان يحتجب ساداتكم مع

النساء للشراب والسماع . وانا اقضي بنفسي في اموركم ، فأكون
لكم حامياً وصديقاً ، وقاضياً ووزيراً . واذا شكنا اي احدكم
الآخر ، حكمت بالعدل بين الخصمين . »

ويقول ابن بسام ان القنبطور ترك ابن جحاف على القضاء
نحواً من عام ، ثم اعتقله واهل بيته وقرابته وجعل يطالبهم
بذخيرة القادر بن ذي النون ، فانكر القاضي ان يكون لديه شيء
منها ، فهدده السيد بالقتل ان كان كاذباً ، وهو يعلم انه قد استولى
عليها بعد مقتل القادر ، وفي جملتها عقد زبيدة « حمة العقرب »
وكان من الزمرد والماس والياقوت ، قيل انه كان لزبيدة زوج
هارون الرشيد ، فنهب يوم مقتل الامين ، وانتقل الى الخليفة
الاموي في الاندلس عد الرحمن الثاني . ثم صار بعد سقوط
الدولة الاموية في قرطبة الى الدولة النونية ، فحمله القادر من
طليطلة الى بلنسية ، فلما قتل استحوذ عليه القاضي ابن جحاف ،
ثم امتلكه السيد ، وبقي في حوزته حتى مات ، فأخذته شيانة معها
الى قشتالة . ويقول ميناندز بيدال ان عقد حمة العقرب كان بخزانة
قشتالة في القرن الخامس عشر ، فأثار شهوة الشريف القارو اولينا ،
فعدا عليه . وعثر الملك جوان الثاني على هذه الحلية سنة ١٤٥٣
تحت عمود من اعمدة القصر الملكي في مدريد ، ثم ضاع اثرها ،
فلم يسمع بذكرها بعد هذا التاريخ .

وقيل ان ابن جحاف عرض على السيد هدية من ذخائره ،
فردها عليه ، ولم يأخذها منه . فاوجس القاضي شراً . ثم امره ان
يبين في كتاب ما لديه من المال والحلى والجواهر ، وان لا يخفي

شيئاً عنه . فوعده بذلك ، ولكنه اخلف الوعد ، وابقى الذخيرة
مطمورة في الارض . ويقول المقرئ صاحب نفتح الطيب : « فاتفق
انها وجدت عند القاضي ، فأمر به فأحرق حياً . »

على ان الذخيرة لم تكن السبب الوحيد الذي حمل رذريق
على قتل ابي احمد بن جحاف ، فهناك اسباب اخرى جعلته يحقد
عليه ، ويُرصده له الشر ، منها اغتياله لتابعه القادر بن ذي النون ،
واقفاله المدينة في وجهه ، وحجزه عنه ما اودع من الخنطة فيها ،
واستنجاهه المرابطين عليه ، وتلونه في المفاوضات حيناً معه ،
وحياناً معهم ، حتى ادى الامر الى حصار طويل ، أخره عن دخول
بلنسية ، وأضر بسكانها ضرراً بليغاً ، لما اصابهم من الجوع العاشم
حتى اكلوا جلود الحيوانات .

ويقول ابن بسام ان رذريق كان قد هم باحراق زوجة ابن
جحاف وبنيه معه ، فضج المسلمون والمسيحيون معاً ، ورجبوا في
ترك الاطفال والعيال ، فأجاب رذريق سؤلهم بعد جهد شديد .
وأضمرت نار عظيمة في ساحة بلنسية كانت تفتح الوجوه على
مسافة بعيدة ، وجيء بالقاضي ابي احمد يرسف في قيوده ، وقد
احتفر له حفرة ، فأدخل فيها الى حجزته ، اي وسطه ومعقد
ازاره ، وسوي التراب حوله ، وضمت النار نحوه . فلما دنت منه
ولفحت وجهه قال : بسم الله الرحمن الرحيم ! وقبض على اقباسها ،
وضمها الى جسده ، ليقصر مدة عذابه .

ثم اختار رذريق لبون بن عبد العزيز والياً من قبله على
بلنسية ليستأنس به المسلمون . واقام هو في قصر القادر يعني

باصلاح امارته وتدير شؤونها ، منصرفاً اليها بكل قواه . قال فيه احد المؤرخين انه احبها كعشيقة له . ومع ذلك لم يغفل عن امراته واولاده ، فاستقدمهم من بيفار . ولبت نحو خمس سنوات يقاوم المرابطين ، ويمنع تقدمهم في امارته ، فما ينالون منها منالاً ، ولا يستطيعون الايغال في الولايات الاسبانية ، حتى اصابته الحمى وتقلت عليه الجراح القديمة . وبلغه ، وهو على هذه الحال ، مقتل ولده ديانغو في جيش الفنس ، وانهزام فرسانه امام ابن عائشة قائد المرابطين في سنة ١٠٩٧ ، فألمه الخطب ، واشتد عليه المرض ، حتى نهك قواه ، واودى بحياته في تموز سنة ١٠٩٩ .

وكانت الجيوش الصحراوية لا تنفك تهاجم المدينة ، فأبت الاميرة شيانة ان تتخلى عن تراث بعلمها ، فظلت تدافع المرابطين زهاء ثلاث سنوات ، وقائدهم مزدلي يشد الخناق على بلنسية . فلما ضاق ذرعها بعثت اسقف المدينة جيروم ذي بيروغورد تستنجد بابن عمها الفنس ، فخف اليها ملبياً . ورفع المرابطون الحصار عن بلنسية عندما عرفوا بمجيئه . فدخلها دون ان يلقي مقاومة . ولكنه وجد ان الدفاع عنها يرهق جيشه على غير جدوى ، فلم يشأ ان يبقيه فيها عرضة لهجمات الملتهمين . فأمر شيانة بالجلء عنها ، فأطاعت مكرهه ، وعادت برجالها مع الجيش الى قشتالة ، حاملة رفات زوجها رذريق (ايار سنة ١١٠٢) ، بعد ما اتسبت بلنسية وأحرقت ، فدخلها مزدلي ، وهي على تلك الحال .
وبموت السيد تطوى صفحة جليلة من تاريخ الاندلس العربية ، فان ولاياتها اصبحت خاضعة لمراكش ، تابعة ليوسف

ابن تاشفين الزعيم المرابطي ، بعد فضال طويل اشترك فيه امرأؤها
وامراء اسبانية المسيحية ، ليطردوا الغريب من بلادهم ، فلم
يستطيعوا الى ذلك سبيلا .

يوم سرقسطة

ما كان طبيعياً ان تظل سرقسطة امارة اسلامية مع تطرفها في الشمال الشرقي على نهر ايره (Ebre) وقد سقطت قبلها طليطلة في ايدي الاسبانيين ، فجعلت نهر التاج فاصلاً بينها وبين الولايات الاندلسية المسالمة ، حتى اصبحت في شبه عزلة عن ابناء جلدتها تستجد في ضنكها ملوك الطوائف وتستنفر امير المرابطين وقد اخذها الفنس السادس بالحصار اخذاً شديداً ، فارده عنها إلا نياً جاءه عن يوسف بن تاشفين وامراء الاندلس بانهم زاحفون اليه في جموع جرارة ، فادر نحوهم قبل ان يبلغوا طليطلة والتقاهم في بطليوس حيث دارت عليه معركة الزلاقة بشؤم الطالع (١٠٨٦ م) فانكفاً منهزماً الى عاصمته في فلول من جيشه المكسور ،

فاستطاعت سرقسطة عندئذ ان تتنفس الصعداء، وتستعيد سلطانها
 على الولايات التي انتزعت من يدها، ولم يكن لها قبَل بالدفاع
 عنها. ولكن لم يطل الامر حتى ساورها خطر جديد من ناحية
 ارغون لا يقل هولاً عن الخطر الاول، فان اميرها شانجه بن
 رذمير (Sancho Ramiro) اغار من جبال البرنات (Pyrénées)
 بعشرين الف مقاتل على نهر ايره فتصدى له المستعين بن هود
 صاحب سرقسطة يدافعه بظاهر وشقة (Huesca)، وقيل ان السيد
 رذريق الفارس القشتالي حارب مع المسامين في هذه الموقعة وكان
 يومئذ ضيف المستعين بعد ان تفاه الفنس السادس من قشتالة.
 إلا ان النصر حالف الارغونيين فانهم امير سرقسطة في جيشه
 ودخل وشقة محتماً بقلعتها الحصينة، فضرب المسيحيون حولها
 آلات الحصار، وشدوا عليها الخناق ليكرهوها على الاستسلام،
 فصبرت بأسلة، ودافعت انبل دفاع لتي منه الارغونيون ضيماً
 وخسراناً، واصيب فيه شانجه بسهم قاتل اودى بحياته (١٠٩٣).
 ومع ذلك فالحصار ما برح على شدته وضغطه، وتمكن الغزاة في
 الوقت نفسه من افتتاح مدينة افراغة (Fraga) والتغلب عليها،
 فلم يبق من سبيل للمستعين إلا ان يفزع الى حليف يناصره،
 وينفس الكرب عنه. فرأى ان يحالف عدوه الفنس السادس لما
 يعلم من تفسخ الامراء المسيحيين ثم من استياء صاحب قشتالة
 لتوسع مملكة ارغون. وقد تعودت سرقسطة لتطرف امارتها ان
 تؤدي الجزية لملوك قشتالة، وتحالفهم على الاعداء الذين يهددونهم
 من قطلونية وارغون والبشكنس (Basque)، فقد رأينا السيد

وذريق يلجأ اليها لان اميرها ابا جعفر المقتدر ومن بعده ابنه المؤمن والد المستعين كانا حليفين لفردينان الاول ثم لولده الفنس السادس ، فغير عجيب ان يحذو الابن حذو ابيه وجده فيحتمي بعاهل قشتالة في الملم العصيب .

وكان الفنس قد استأنف اهبطه ونشاطه بعد كارثة الزلافة ، فخرج سنة ١٠٨٧ يثخن في الولايات الاندلسية ، مستنزلاً امرأها عن قواعدهم وحصونهم . فعاد هؤلاء الى استصراخ يوسف بن تاشفين ، فعبر اليهم سنة ١٠٨٨ ينثر التيجان عن رؤوسهم ، ويبسط يده على اماراتهم . وافتتحت جيوشه ببلنسية سنة ١٠٩٢ فأزالت عنها كلمة النوفيين ، وهي تحت حماية السيد رذريق يومئذ ، تابعة لمملكة قشتالة ، وقد رأينا الفارس الاسباني يخف لانقاذها برجاله وحلفائه المسلمين ، حتى استردها سنة ١٠٩٤ . لذلك لا يصح قبول الرواية التي تزعم انه حارب ملك ارغون سنة ١٠٩٣ منتصراً لليهوديين ، لانه كان منصرفاً في تلك السنة الى تحصين القلاع الجبلية المحيطة ببلنسية ، ثم الى السعي لمخالفة الامراء المسلمين في السهلة وشاطبة ودانية ومريطر .

وكما كان السيد مهتماً بصد المرابطين عن الولايات الشمالية خشاة ان يدخلوا اسبانية ، فكذلك كان هم الفنس السادس ، فقد ازعجه توغلهم في الأنحاء الجنوبية والشرقية ، واستيلاؤهم على بلنسية ، فنشط الى حشد الجيوش ليدفعهم عن بلاده اذا حاولوا الغارة على طليطلة . فلهذا لم يكن بوسعهم ان يجيب فداء المستعين عندما استغاثه ملتسماً حمايته ، واعدأ بتأدية الجزية على

ان يمدده بجيش يرد الارغونيين عن وشقة وقد بلغ منها الحصار
اشده . فاما رأى المستعين ان الفنس عاجز عن مساعدته لاشتغاله
بدفع الخطر الصحراوي عن مملكته ايقن ان لا فائدة من محالفته ،
فنقض المعاهدة ، وولى وجهه شطر المرابطين مع علمه بما يجز
تدخلهم من الخطر على امارته ، ولكنهم على علاقتهم ابناء ملته .
ولعله تمثل بقول المعتمد بن عباد : « رعي الابل خير من رعي
الخنازير . » فأوفد ابنه عماد الدولة الى يوسف بن تاشفين في
مراكش ، ومعه الهدايا النفيسة ، يخطب وده ويستعينه على
الارغونيين ، فلم يتلكأ امير المساميين عن محالفته ، وهو يعلم موقع
سرقسطة ، وما يرجى من فائدته في مهاجمة الامراء المسيحيين
لقربها من ممالكهم . ثم انه كان يؤثر ان تظل هذه الدولة المسلمة
شجاً في حلق الاسبانيين . فبادر الى انجاد وشقة بستة آلاف
راجل والفرس ، واعدأ بمتابعة الامداد . وكتب الى امراء
دانية وشاطبة والسهلة ، يهددهم ويدعوهم الى نصره المستعين ،
وطرد الارغونيين عن وشقة .

وكان عرش ارغون قد صار بعد وفاة شانجه الى الدون
بدر وولده الاكبر ، فتولى بنفسه قيادة الجيش ، ملتزماً حصار
القلعة ، حتى اذا بلغه زحف المرابطين ومن انضم اليهم من العساكر
الاندلسية رفع الحصار عن وشقة وخف الى لقاءهم في الكرازة ،
فمزق جموعهم ثم ارتد الى وشقة ، فما انفك يحاصرها حتى سقطت
في يده سنة ١٠٩٦ ، فجعلها قاعدة لملكه .

ويقول المستشرق الالماني جوزف اشباخ ان الحروب الاسبانية

بين المسلمين والنصارى اتخذت في ذلك العهد شكلاً صليبياً منظماً
 لان الكرسي الرسولي منع امراء اسبانية من الذهاب الى الشرق
 للمساهمة في انقاذ الاراضي المقدسة اسوة بغيرهم من الامراء
 المسيحيين ، مخافة ان تنتقص قواهم ، فيعجزوا عن القيام بقسطهم
 من الحرب الدينية في الغرب ، خصوصاً بعد ما اوغلت جيوش
 المرابطين في ولايات الاندلس وبات خطرهما يهدق بالممالك المسيحية
 في اسبانية ان لم يكن بالممالك الغربية جمعاء . فهب الامراء
 الاسبانيون من كل جانب يدافعون العدو المغير على ثغورهم ،
 فانسعت دوائر القتال ، وتعددت جبهات المعارك ، ففي كل ناحية
 تزهق ارواح ، وتغلي دماء . وكان ملك ارغون قد اطمعه سقوط
 وشقة فراح يوالي الغارة اثر الغارة ووكده سرقسطة دون سواها .
 بيد انها امتنعت عليه متمردة فردته خائباً يائساً سنة ١١٠١ .
 ثم ان المرابطين استردوا بلنسية سنة ١١٠٢ بعد موت السيد
 رذريق فأصبحوا مسيطرين على القسم الشرقي من البحر والبر ،
 يهون عليهم ان يتداركوا سرقسطة ويدروؤوا الخطر عنها . ثم رأوا
 ان وجودهم فيها اجدى نعماً لهم اذا ارادوا الغارة على قطلونية
 وارغون فدخلوها على كره من المستعين سنة ١١٠٧ ، فنشبت بينهم
 وبين الارغونيين معارك متتامة . وكان يوسف بن تاشفين قد
 توفي سنة ١١٠٦ وصارت الامارة بعده الى ابنه علي ، فحشد
 جيشاً عظيماً سنة ١١٠٨ عاقداً لواءه لاختيه تميم ، فزحف الامير
 المرابطي الى قشتالة يشن فيها ، فاعترضته قلعة اقلدش (Uclés)
 تستوقفه بمحصونها المنيعة ، فاناخ عليها يحاصرها ويساور آطامها ،

فأصابها منه ضيق شديد . وكان النفس السادس قد بلغ من كبر السن ما أقعده عن خوض المعارك ، فاشفق على قلعته ان تستخذي للاعداء ، فتفتح لهم الطريق ، فيتوغلوا في ارضه ، فأمر بان ترسل اليها نجدة قوية تنفس الكرب عنها ، ولو يستطيع لقاد هذه الحملة بنفسه ، وهو يعلم ما لوجوده من التأثير في اذكاء حمية رجاله . فخيّل اليه ان يملأ هذا الفراغ بارسال وحيد شائجه وعمره يومئذ احدى عشرة سنة او خمس عشرة سنة ، على رأي لاوي بروفنسال ، فسار الغلام مع الجيش يصحبه مؤدبه الكونت غرسيه ، حتى بلغوا اقليش ، فالتحموا والمرابطين في معركة ثقيلة الوطأة عادت عليهم بالخسار والخذلان ، فقتل شائجه ومؤدبه ، وعشرون الفاً فيهم سبعة من قوامس (Comtes) قشتالة .

لا نحاول ان نحيط ما اصاب النفس من الحزن الاليم عندما انتهى اليه نبأ اقليش . فحسبنا ان نتصور هذا الملك الشيخ يجر وراءه اجماد ثلاث واربعين سنة استوى فيها على العرش ، فاذا هو يمضي آخر حياته بكارثة لم تقتصر على انكسار جيشه ، واستسلام قلعته ، بل جاوزت ذلك الى الفجيعة بانه الوحيد ، بقية أمه ، ووارث عرشه . وتقول الرواية الاسبانية ان شائجه لم يكن ولدأ شرعياً فقد رزقه النفس من حظيته ابنة المعتمد ابن عباد ، وكان يحبه كثيراً لما بدا من نجابته على حداثة السن ، فخالف فيه القانون المرعي وجعله ولي عهده ، ومحط

رجائه . فاذا يكون مصير تلك المملكة العظيمة اذا تركها ولا وارث من صلبه يجمع اجزاءها ، وهو لا يأمل ان يرزق ولداً بعد ان بلغ من العمر عتياً ؟

وقعت هذه الهموم ثقيلة على عاتق الشيخ الفاني فكاد يهوي تحتها لولا بقية حزم لم تنل منها عاديات السنين . فرأى ان لا سبيل الى بقاء العرش في سلالته الا بنقل ولاية العهد الى ابنته اوراكا . وكانت فتاة ذكية كثيرة المطامع ، تزوجت في العاشرة من عمرها بالكونت ريمون البورغوني . ثم توفي بعلمها بعد ما رزقت منه غلاماً سمته الفنس باسم ابيها . غير ان الملك الشيخ خشي الا تستطيع ابنته حماية المملكة وحدها ، فأثر ان يزوجها ملكاً قوياً من انسابه ، فوقع اختياره على ملك ارغون حفيد عمه راميرو . وكان بدرو قد توفي سنة ١١٠٥ وخلفه اخوه الفنس الاول الذي لقب بالمحارب لبسالته وغاراته المتلاحقة على شعور المسلمين . ولم يغب عن والد اوراكا ما يتعلق بهذا الزواج من الخير لاسبانية اذ تصبح مملكة قشتالة ولاون وجليقية واشتوريش ومملكة ارغون والبشكنس دولة واحدة . فدعا مجلس النواب (Cortès) فانعقد في لاون حيث اجتمع الاساقفة والقوامس وحكام الولايات ورجال الدين والاشراف والفرسان وممثلو الطبقة الوسطى ، فقرروا ان تكون اوراكا وارثة مملكة قشتالة ولاون واشتوريش ، وان تزوج بالفنس الاول ملك ارغون ، حتى اذا لم ترزق منه ولداً عادت المملكة باجمعها الى ابنا الفنس البورغوني ، واعطي هذا عرش جليقية على ان يكون تابعا لقشتالة .

وتوفي الفنس السادس سنة ١١٠٩ بعد ان اطمأنت نفسه الى نظام ولاية العهد، وأمن على عرشه من الانهيار، وما خطر له ان زواج ابنته بنسيبها ملك ارغون سيدفع البلاد الى فتنة حمراء . ذلك ان كلا الزوجين رضي الآخر بدافع المنفعة الشخصية لا بدافع الحب المتبادل ، وان كليهما كان يريد ان يستأثر بالسلطة دون رفيقه ، وفي نفسه من الطياع والصلاة ما يأبى عليه ان يلين او يتنازل عن شيء من حقوقه ، حتى بلغ التنازع بينهما الى النفور فالتباغض ، ثم الى مجاهرة الخلاف والقطيعة . فطلبت اوراكا الطلاق متذرة بموانع القربى ، وراحت في الوقت نفسه تبسط يدها للعشاق مستنصرة بهم ، مشيرة غيرة بعلمها لتحمله على قبول الطلاق .

واشتهرت روايتها الغرامية فباتت سمرّاً للناس ولا سيما صلتها بالكونت غومز . وكان الفنس يتألم في كبريائه من سلوك زوجته ويزداد سخطاً عليها . غير انه رأى من الحكمة ان يرفض تطليقها حفاظاً على حقوقه في مملكة قشتالة ، وان يعتمد الى تدبير جازم يضع حداً لنفوذها وتهتكها . فأمر باعتقالها بعد ان جعل حصون طليطلة في حراسة جنوده الارغونيين . الا انها تمكنت من الفرار واخذت تدس لزوجها وتؤلب عليه الانصار من قشتالة ولاون واشتوريش ، فنشبت في اسبانية حروب اهلية ادمتها عدة سنوات ، وخاض غمارها الفنس بن اوراكا منازعاً امه من جهة والفينس المحارب من جهة اخرى ... على انها كانت تتوقف حيناً بعد آخر ليردوا غزاة المرابطين عن بلادهم او لغيروا على ثغور الاندلس .

ولبثت اسبانية قلقة لا تستقر على حال حتى يئس الفنس
المحارب من خضوع قشتالة، فسكت عن المطالبة بحقوقه مكتفياً
بلقب قيصر اسبانية اسوة بالفنس السادس . وكان الخبر الاعظم
قد اقر فسخ الزواج بمانع القرابة، فانصلت اوراكا عن زوجها
انصلاً شريعياً . ثم ازال بسلطانه الروحي خلاف الام وولدها
على ان يملكاً معاً، فتم الصلح بينهما في اجتماع عقد سنة ١١٢٤ .
وكان ملك ارغون مع اشتغاله بالفتنة الاهلية لا يفتر عن
مجاهدة المرابطين ومنعهم من الايغال في بلاده . فقد اغار علي بن
يوسف بن تاشفين على ولاية طليطلة فاستولى على طائفة من
حصونها، وافتتح مجريط (مدريد) ووادي الحجارة (Guadalajara)
وسواها، ثم عاد الى مراکش وبقي قائده مزدي يتابع بعده
الغارات . فحدثت عدة مواقع في جهات مختلفة من الولايات
الاسبانية رافق النصر في اكثرها المرابطين فافتتحوا عدداً من
المدن والقلاع واتلفوا الحقول والمزارع، فأصبحت البلاد من جراء
ذلك بقحط شديد ونالها من العناء ما اضيف الى ما تعانیه من
حربها الداخلية التي انتفعت بها جيوش ابن تاشفين . ويقيناً لو
ان المرابطين واهل الاندلس على وفاق خالص لكانت الفرصة
يومئذ اسنح ما يرجى لاكتساح العدو والقضاء عليه . ولكن
امراء الاندلس كانوا ناقمين على الدولة الافريقية لاستطالتها على
ولاياتهم، واغتصابها السلطة من ايديهم، فلم يولوها المعونة الصادقة
بل ربما وجدت فيهم من يمالئ الاعداء عليها، فان امير سرقسطة
عبد الملك بن هود ساءه ان يصبح المرابطون سادة في عاصمته.

يعود الامر اليهم ، وهو ليس له امر . فانتقض عليهم غير ناظر
 في نتيجة عمله . كان شجاعاً كأبيه المستعين ولم يكن كأبيه ذكاء
 وفطنة ، فخرج من سرقسطة برجاله واهله فقصد الى حصن
 روطلة (Roda) فامتنع به . ولو اکتفى بعمله هذا لكان الخطب ،
 ولكن مقتته للمرابطين ضرب على عينيه غشاء من الغفلة فتورط
 في عقد مخالفة مع الفنس المحارب ناسياً ان حليفه الجديد
 يطمع من زمن في امتلاك سرقسطة ليزيل عقبه كأداء تواجبه
 مملكته ، وتحويل بينه وبين حرية الملاحة في نهر ابره . وما
 كان ينبغي له ان ينسى ، والعهد قريب ، مهاجمة الارغونيين
 لعاصمته غير مرة وارتدادهم عنها خاسرين امام مزدلي قائد
 المرابطين ، بل ما كان ينبغي ان ينسى مقتل ابيه المستعين وهو
 يدافع عن حصن تطيلة (Tudela) سنة ١١١٠ ليمنع ملك ارغون
 من التقدم الى سرقسطة .

فاما تمت المعاهدة بين الاميرين زحفت جيوشهما متحدة الى
 المدينة فحاصرتها حصاراً شديداً واكرهت المرابطين على الخروج
 منها فتركوها سنة ١١١٧ (٥١١ هـ) بعد ما حاولوا استردادها
 تكراراً دون جدوى حتى تمزق جيشهم في المعركة الاخيرة التي
 اصطلت نارها لاميير تميم .

وهنا تحم مأساة سرقسطة ، فان الفنس المحارب بعد ان
 بات بمأمن من خطر المرابطين عاوده الطمع في الاستيلاء على تلك
 القاعدة الحيوية لمملكته . فطلب الى حليفه ان يتنازل له عنها ،
 فكان جواب عد الملك رفضاً ايماً ، واستعداداً للدفاع . على

ان ملك ارغون لم يكن يتوقع غير هذا الجواب ، فجاءه وهو على تعبئة لمهاجمة المدينة ، فباغتها بجيشه قبل ان تأخذ أهبتها للقاء ، فنصب عليها آلات الحصار ، ووائها بقسوة عاتية ، فقابلته بمثل شدته ، وصبرت للحصار صبراً شريفاً ، يتفق المؤرخون على التنويه بذكوره ، مع انها لا تأمل نجدة تأتيها فتفرج الضيق عنها ، وليس لديها من المؤونة ما يكفيها لحصار طويل ، حتى اذا نشب الجوع يهددها وآضت المقاومة الى ضرب من الجنون فالانتحار ، اضطر عبد الملك الى طلب الصلح والتخلي عن عاصمته ، وهو في يقظة من الالم المرير لغفلته الحمقاء . فعاهده النفس ان يضمن لاهل المدينة الامان على النفوس والاموال ، وان يترك لهم الحرية في اقامة شعائر الدين وشرائع التقاضي ، وان يخيرهم في البقاء او المهاجرة . ففتحت سرقسطة ابوابها في ١٨ تشرين الثاني ١١١٨ (٤ رمضان ٥١٢ هـ) فدخلها ملك ارغون بعساكره مخفوفاً برسوم الابهة والجلال . وفيما هو يحتل قصورها وثكناتها ، ويحول مسجدتها الجامع الى كاتدرائية ، كان عبد الملك بن هود يشد اثقاله ويحمل امواله ويخرج في مآتم من اهله وحرسه الى حصن روملة ليتخذة مقراً . وهاجر بعده كثير من المسامين ، فمنهم من اقتفى اثره ، ومنهم من قصد مرسية او بلنسية .

وجعل ملك ارغون سرقسطة عاصمة لمملكته كما جعل ملك قشتالة طليطلة من قبل ، فانهارت بها القاعدة الثانية من كبريات قواعد الاندلس العربية بعد ما لبثت اربع مائة سنة حصناً

ركيناً من حصون المسلمين ، وقذى في عين اسبانية المسيحية ،
تعرض طريقها جامعة على نهر ايره .

معركة الارك

كل امراء الاندلس كعبد الملك بن هود ساخطون على المرابطين ، يشتهون زوال دولتهم ، لا يحترسون من صفقة حمقاء يعقدونها على غرار سرقسطة ، توسلاً للخلاص من جفاعة الصحراء ، شاء القدر المشؤوم ان يفزعوا اليهم في تفسخهم ، وخناق الاسبان يلتف على اعناقهم ، فما نفس يوم الزلافة عن صدورهم حتى تهاوت التيجان عن الرؤوس ، وتداعى عليها استقلال شعب ما انفك منذ اربعة قرون ينافح الاعداء حرصاً عليه ، ويقرب لهيكله الحرام غوالي الدماء . فاذا هم في ارضهم طعام مأكول ، ودولتهم ولاية في دولة الملتئمين ، واذا مراکش عاصمة لقرطبة ام العواصم ، وحاضنة الخلفاء والملوك ، تنهى

وتأمر فتطاع ولا تُسأل ، وتعطى ولا تُحاسب . فان المرابطين
 ما تعودوا في عسفهم ، وعنف وطأهم ، مجاملة وسماحاً . يسوقون
 اهل الاندلس سوق الغالب للمغلوب ، ومخاشنة البدو الغلاظ
 للحضر المتنعمين . يطاردون الفكر فما تطمئن اليهم فلسفة او
 منطق . ويبتعثون التعصب ، فكل مذهب الا مذهب مالك
 مضطهد مكروه . بالحيف والارهاب يأخذون الناس ، وآذانهم
 يفتحون للدسائس والوشايات . دانت لهم الاندلس مستكينة
 للبطش والقوة ، فامتلكوها قادرين . ولكنهم عجزوا عن
 امتلاك القلوب . براير غرباء ، لا روحهم روحها ، ولا عقيلتهم
 عقيلتها . فيهم قسوة وصلابة واستداد . فلبثت تامل حاقدة
 تحت قبضتهم العاتية ، شأن كل امة مهيضة تغنو للمسيطر ما
 دامت له القوة ، حتى اذا آنت فيه الضعف افلتت غاضبة
 تطلب استقلالها المفقود . ويقودها الحقد ، مع ما بها من وهن
 العود ، الى التخلص من الغاصب على غير روية وهدى ، فتحالف
 دولة مخوفة الخائب ، تستنصرها وتستخلصها مغترة بما تجد عندها
 من العطف ولين المواعيد . ويتغافل اصحاب الحكم فيها عن
 الخطر الجديد في الحلف الجديد ، يتهافتون عليه عامهين ، وهم
 لو راجعوا قرارة نفوسهم لأوا انهم لم يقموا على اهون الشرين .
 بل حب التشفي من المتسلط القديم ، والامل المعقود على
 الموهوم من فضيلة التغيير ، يجعلهم يتعامون عن الخطر الاعظم ،
 لا يبصرون لديه الا خيراً وفرجاً ، فتمتد اليه الايدي داعية ،
 مستجيرة من الرمضاء بالنار ، لجوء امراء الاندلس الى ملوك

اسبانية متناسين مطامع قشتالة وارغون ، وتاريخاً صارخاً مخطوطاً بالدماء ، او كما لجأوا الى الموحدين يستقدمونهم ، وانما هم يستبدلون دولة افريقية ظافرة بدولة افريقية مغلوبة ، وينتقلون من استبعاد الى استعباد ، لا يخطر لهم على بال ان يبحثوا في ذواتهم عن الداء والدواء بحثاً صادقاً مجدياً ، ليدركوا ان ما بهم من هزال ناشى عن شقاقهم وتخاذلهم ، نتيجة مرض السيادة فيهم ، وعدوان قويهم على حرية الضعيف . فاصبح بعضهم يناصر الآخر او يخذله اذا واثبه عدو غريب . وربما حالف هذا العدو عليه ، لا يبالي ما يجر على بلاده وقومه من الهوان والدمار . فبين امراء الاندلس تبادل لا ينقطع من الطمع والحذر واضمار الشحناء ، مع ما هم عليه من الاستهداف الطبيعي لغزوات جيرانهم في الشمال والجنوب .

ومعلوم ان الممالك الاسبانية لا تقل عن الممالك الاندلسية تباغصاً وخلافاً . غير انهم كانوا يدفنون احقادهم الى حين عند تكالب الاخطار ، فيتهادنون او يتحالفون ليصرفوا قواهم الى مجاهدة اعداء الدين ، وان كان بعضهم لا يستنكف احياناً ان يحارب ابناء ملته في صفوف المسامين . ويجدون عدا ذلك في الدول المسيحية المجاورة اعواناً يخفون الى نصرتهم رغبة في الجهاد او شهوة للغنائم ، لا طمعاً في الاستيلاء على بلادهم وازالة كلمتهم ، كما يطمع سلطان مراکش في التغلب على الاندلس ، فيستبد بشؤونها المرابطون ، ثم يستبد بشؤونها الموحدون .

وقد صبر الاندلسيون على حكم ابناء تاشفين زهاء قرن ، يقدمون

لهم الطاعة كرهاً ، ولا يحجمون ، اذا امكن ، عن خذلهم في محاربة
المسيحيين حتى سقطت مرقسطة في يدي الفنس المحارب (١١١٨ م)
ثم تلتها معارك اخرى افتتحت خلالها قلاع حصينة كان يعتصم بها
الملثمون ، من بينها قلعة ايوب (Calatajud) اناخ عليها الفنس
سنة ١١٢٠ ، فدافعه دونها الامير تميم ، ثم اضطر ان ينزل عنها بعد ما
مُصرع امامها عشرون الفاً من جنوده الاباسل .

فهذه الهزائم المتتابة نالت من هيبة المرابطين ، واطمعت فيهم
اهل الاندلس ، فاستهانوا الوثوب عليهم لاجلائهم واستعادة الحق
المغصوب . وكانت قرطبة في رأس القواعد الاندلسية سخطاً وحنقاً ،
يؤذي كرامتها جنف الصجراوين وغلاظتهم ، ولم يأن لها ان تنسى
عزتها الملوكية والعرش الاثيل . فهبت نائرة تضرب في وجه الحامية
المرابطية ، وترهبها المنايا الواناً ، حتى حملت علي بن تاشفين على ان يعبر
الزقاق بجيش لهام ، فيخمد ثورتها بعد عناء .

ولكن ما حيلة المرابطين وقد تأذن القدر بانهبسار سلطانهم ،
فتركهم غرضاً لسهامه ، فبينما هم يغالبون احرار الاندلس حيناً ، وغزاة
الاسبان احياناً ، اخذت ثورة الموحدين تحتدم في المغرب ، فتستأثر
بقواتهم ، وتشغلهم عن ضبط ولايتهم عبر المضيق ، ودرء الاعداء
عنها . فان الدعوة التي اظهرها مهدي بني مصمودة محمد بن تومرت
كانت بليغة التأثير ، سريعة الانتشار ، فتبعه خلق كثير ، فوجد منهم
عشرة الآف ، وقدم عليهم ابا محمد البشير احد صحابته العشرة ،
وبعثهم لمجاهدة المرابطين ، فراحوا يغزون في بلاد المغرب ، وينكلون
بالجيوش المرابطية (١١٢٢ م) حتى اوقعوا الذعر في القلوب . وما زال

لخطر يعصف من بلد الى بلد حتى شارف مراكش العاصمة ، فدافع عنها المثلثون مستبسلين مستميتين ، فتمكنوا من انقاذها ، وارتد عنها الموحدون خاسرين ، بعد ان قتل قائدهم ابو محمد البشير (١١٢٥ م) .

على ان انتصار المرابطين في مراكش لم يكن بوسعه ان يستر انخدالهم في الوقت نفسه ، امام الفرس المحارب ملك ارغون . فقد اغار هذا الامير المقدم على الولايات الاندلسية متكلاً على مساعدة « الفرقة الخامسة » من المعاهدين (Mozarabes) وهم الصاري المستعربون الذين يعيشون في الاراضي الاسلامية . فاستطاع ان يجتاز الاندلس من الشمال الى الجنوب عائثاً مخرباً ينسف الزرع وال عمران ، ويزداد جيشه تضخماً كلما تقدم بما ينضم اليه من المعاهدين حتى بلغ البحر المتوسط . ثم عاد برجاله سالماً غانماً منتصراً . أفلا يكفي هذا وحده ان يؤكد للاندرلسيين ضعف القوى المرابطية ، فيستهينوا بها ، ويذهب ما عندهم لها من الحرمة ، وهم الى ذلك يعلمون ان ثورة المغرب في ابان اشتغالها ، والمثلثون ، كما يبدو ، عاجزون عن اطفاء نارها . فان هزيمة الموحدين في مراكش لم توهن عزيمة المهدي ولا صرفته عن دعوته الجريئة ، فمهد في قيادة عساكره الى عبد المؤمن بن علي ، موضع ثقته العظمى ، واحب صحابته اليه . فتمكن هذا من الايقاع بجيش عظيم من المرابطين يقوده الامير ابو بكر بن علي (١١٣٠ م) . وعقب هذا الانتصار موت المهدي فبويع عبد المؤمن بالخلافة بعده ، فم على يده فتح مراكش

وانهار عرش ابناء تاشفين (١١٤٦ م) .

ومن الطبيعي ان تساهم الاندلس في ارهاق المرابطين ، خلال هذه السنوات ، مساهمة فعالة ، على امل ان تخلع نير المعتصب ، ويعود اليها استقلالها القديم . فاذا هي تخدم مصلحة الموحدين من حيث ارادت ان تخدم مصلحتها . فقد شبت الثورة في القاع الغربية ، يورثها احمد بن الحسين بن قسي ، فاندلعت سريعة ممتدة الى اشبيلية وقرطبة ، تتلقف المرابطين من كل صوب ، ويعجز عن كبحها قائدهم يحيى بن غانية . بيد انها تحتاج الى نجدة تأتيها من الخارج فتضمن نجاحها ، والموحدون في عدوة المغرب يشخون في المرابطين ، فلماذا لا يدعوم احمد بن الحسين ويقدم لهم الطاعة ، حتى اذا ابطأوا عن تلبيته بشاغل حروبهم لا زهداً في الاندلس ، تتلفت انظاره الى النفس بن هنري البورغوني ملك البرتغال ، فيمده بتجريدة باسلة ، تنفذ في الولايات المرابطية مفسدة ثقيلة الوطأة . وكان عبد المؤمن امير الموحدين يحاصر يومئذ مراکش (١١٤٦) ، وعيناه ناظرتان الى الجزيرة ، يرى الملك البرتغالي يناصر الثوار ويملاً يديه من الغنائم ، ويرى النفس السابع ملك قشتالة يعضد المرابطين طمعاً فيهم ، ومعاكسة لصاحب البرتغال . انما يجدر به ان يخف الى نجدة ابن قسي ، فيسحق قوات الملتئمين ويقضي خطر المسيحيين عن الاندلس المسامة ، فهو بها اولى ،

١ هو ابن ريمون البورغوني ، وامه اوراكا زوجة النفس المحارب ، وقد مر ذكره قبلاً .

واليه قبل غيره فزعتها ونداؤها ، وهذه مراکش توشك ان تفتح له الابواب . فجهز حملة من عشرة الاف فارس ، وعشرين الف راجل ، وقدم عليها قائده موسى بن سعيد ، ثم اجازها الزقاق ، فافتحت حصن الجزيرة وجبل طارق هازمة عنهما قوات المرابطين . ووافق ذلك سقوط مراکش ، وزوال دولة ابن تاشفين في افريقية ، فبات من السهل على الموحدين ، وثور الاندلس حلفائهم ، ان يستأصلوا بقايا اعدائهم ، او يقسروهم على الجلاء . ومع هذا لم يتم لهم الامر الا غب معارك دامية ، بذل فيها النفس السابع جهداً عظيماً ، دون جدوى ، لنصرة الملتزمين ، فاوهنت قواه على تقدم العمر ، فمات منهوكاً سنة ١١٤٧ ، وترامى شتيت المرابطين الى الجزائر الشرقية (Baléares) . اما الاندلس فلم تزل تابعة مراکش تحلم بالاستقلال وتستيقظ على العبودية . بالامس كان يتولاها الامير تميم من قبل اخيه علي ابن تاشفين ، واليوم يتولاها السيد ابو يعقوب يوسف من قبل ابيه عبد المؤمن بن علي ، بربري اثر بربري : ما اضيع الثورة في سبيل الحرية !

لم يستطع الخليفة الموحدى ان يدخل الارض الاندلسية الا سنة ١١٦١ بعد ان دوخ بلاد افريقية وافتتح المهديّة وتونس وكانتا في حكم الترمند اصحاب صقلية . فعبر المضيق ونزل بجبل طارق ، فأنشأ فيه حصناً سماه جبل الفتح . الا انه لم يمكث طويلاً بل آثر العودة الى عاصمته المغربية ، تاركاً جيشه يوالي منازل السائر محمد بن سعد بن مردنيش امير بلنسية وحليف قشتالة

ولاون . وتوفي عبد المؤمن قبل ان تقمع ثورة ابن مردنيش ، فتولى الخلافة ابنه ابو يعقوب يوسف ، فتابع مجاهدة الثوار وحلفائهم الاسبانيين حتى استزلهم عن بلنسية سنة ١١٧١ ، فهرب محمد بن سعد الى جزيرة ميورقة (Majorque) ، وخضع اولاده لسلطان الموحيدين .

وكانت البرتغال يومئذ اشد الممالك المسيحية صولة على الاراضي الاسلامية ، فان ملكها الفنس البورغوني ، بعد ان حقق استقلال دولته ، نازعاً عنها يد قشتالة ، صرف همهته الى توسيع حدودها بامتلاك ما جاورها من الثغور الاندلسية ، فلقب بالقاتح لكثرة ما اخضع من المدن والقلاع . فكان على الموحيدين ان يجابهوا هذا الخطر قبل استشرائه . فحشد ابو يعقوب جيشاً عظيماً سنة ١١٨٤ واجتاز به الى الاندلس قاصداً اشبونة (لشبونة) عاصمة البرتغال . فقطع نهر التاج ، فاعترضته قلعة شنترين الحصينة (Santarein) ، فنصب لها ادوات الحصار ، وامر ابنه السيد ابا اسحق والي اشبيلية ان يسير بقواته في الصباح وجهة اشبونة ، ويحمي طريق شنترين . ففهم الامر على غير وجهه ، وارتد بعساكره نحو اشبيلية ، في حين ان سانجه (Sancho) ابن ملك البرتغال كان يتقدم الى شنترين بخمسة عشر الف مقاتل ، ثم انضم اليه اسقف شنت ياق بعشرين الفاً . فوقع الاضطراب في صفوف الموحيدين ، وقلقت نفوسهم بغفلة ابي اسحق اذ اصبحوا بين القلعة والجيش الزاحف عرضة للتطويق . وادركهم المسيحيون وهم على هذه الحال المزعجة ،

فقاتلوا قتال اليأس ، الواهن العزيمة ، فدارت عليهم الدائرة ، وقتلت نخبة فرسانهم . وصبر الخليفة ابو يعقوب لعض السلاح صبر الكرام حتى سقط مدرجاً بدمائه ، ثم توفي متأثراً من جراحه (١١٨٤ م) . وكان يوم شنتين مشؤوم الطالع على الموحدين ، فارتدت فلولهم الناجية الى قواعد الاندلسية باسوا مصير .

وصارت الخلافة بعد ابي يعقوب الى ولده الامير عبدالله يعقوب ، فتلقب بالمنصور . وكان همه في بدء سلطانه ان يجيز على بقايا المرابطين في الجزائر الشرقية ليمنع عدوانهم ، او يخمد فتنة داخلية يختل بها السلام ، فاتاح للبرتغال ان تغنم فرصة مؤاتية ، فتستأنف الغارات على الاندلس وتعود منها بفتح جديد . ثم توفي ملكها الفنس (١١٨٥ م) فتسبم العرش بعده ابنه شانجه ، فسار على خطة ابيه في منازلة المسامين . ثم شغلته احداث داخلية ، فترك الجهاد لالفس الثامن ملك قشتالة . وكان هذا الامير لا يفتر عن غزو الولايات الاندلسية ، مع ما يعاني من مشاكل عسيرة تولدت بعد وفاة ابيه شانجه الثالث . وذلك ان جده الفنس السابع اتبع في نظام ولاية العهد الطريقة السيئة التي سنها اسلافه ، فقسم مملكته بين ولديه ، فجعل اكرها شانجه الثالث على عرش قشتالة . واعطاه حق الجزية على مملكتي نافار وارضون . وجعل اصغرهما فردينان الثاني على عرش لاون وما يليها ، واعطاه حق السيادة على البرتغال . وكأنه اراد ان يتدارك خطر هذه التجزئة فاشترط على فردينان ان يكون تابعاً لاخيه . وفي سنة ١١٥٨ توفي شانجه الثالث ملك قشتالة عن ولد في الثالثة من عمره اسمه الفنس ، ويلقب بالنبيل ، بعد ان

عهد في الوصاية عليه الى بعض اشرف كاسترو من اكرم الاسر
الاسبانية ، ولم يجعل الوصاية لزوجہ بلانکه اخت ملك النافار ولا
لاخيه فردينان خوفاً على الطفل من مطامع عمه وخاله . وكانت اسرة
لارا تنافس ابناء كاسترو في الشرف والسيادة ، فساءها ان يصح
الملك في حوزة نديدها ، تعتر به ويتعاطم نفوذها وسلطانها . فحملها
الحسد على ان تختطف الامير الصغير وتجعله في عهدها . فأدى عملها
هذا الى حدوث مجزرة بين الاسرتين دميت لها اسبانية وتفككت
اوصالها . ثم استجاش آل كاسترو فردينان الثاني ليحمي ابن اخيه ،
فساقه الطمع الى ان يبعث جيشاً ينخن في قشتالة ويحتل حصونها
ومدنها . ولكنه لم يستطع ان ينتزع الطفل من ايدي بني لارا .
وثارت قشتالة بحملتها تؤيد هذه الاسرة لوجود الملك عندها ،
فقاومت صاحب لاون وابناء كاسترو معاً ، وردت غزوات ملك
النافار وامراء المسلمين .

ولما بلغ الفنس النبيل الحادية عشرة (١١٦٦) بويع بالملك ،
يشد ازره القشتاليون وابناء لارا ، فرد غارات عمه ، وطرده اسرة
كاسترو ، فاحذت تلجأ حيناً الى الموحدين ، وحيناً الى لاون حتى توفي
فردينان الثاني (١١٨٨) وصار الملك الى ولده الفنس التاسع ، ولم
يكن كفؤاً لابن عمه صاحب قشتالة فكف عن النزاع .

وكان الفنس الثاني ملك ارغون وهو سطر راميرو اخي الفنس
المحارب ، قد رأى ان يحالف قشتالة ويعترف بحقوقها ، لكي ينصرف
الى محاربة المسلمين ، ودفع النافارين عن الاراضي التي يفتتحها
من الاندلس لئلا يستولوا عليها . اما الفنس التاسع ملك لاون ،

وشانجه السابع ملك النافار ، فكانا يؤثران مخالفة المسلمين على مخالفة
 الفونس الثامن النبيل لانهما لا يريدان الاعتراف له بالسلطان . غير
 ان الخطر الذي بات يهددهم من قبل الموحدين ، اكرههم على السكوت
 فكانوا يتهادنون او يتحالفون الى حين .

وشاء الفنس الثامن ان يحمل على عاتقه عبء هذا الخطر
 الخفيف مع ما كان يعانیه من مكاييد آل كاسترو والامراء
 المسيحيين ، فراح يغزو الاندلس ، يعيث في بسائطها ، وينيخ
 على قواعدها ، حتى اخذته نشوة الظفر وهو يسير من نصر الى
 نصر ، فحدثته نفسه بان يتحدى خليفة الموحدين ، فيدعوه الى
 الحرب ، مستهيناً به ، مثيراً حفظته .

ويقول ابن ابي زرع في روض القرطاس ان الفنس النبيل
 كتب هذه الرسالة الى الخليفة يعقوب المنصور وبعث بها الى
 مراکش : « بسم الله الرحمن الرحيم . من ملك النصرانية الى
 امير الخنيفية . اما بعد فان كنت عجزت عن الحركة اليينا ،
 وتناقلت عن الوصول والوفود علينا ، فوجه لي المراكب والشواني
 اجوز فيها بجيوشي اليك حتى اقاتلك في اعز البلاد عليك . فان
 هزمتني فهديّة جاءتك الى يدك ، فتكون ملك الدينين . وان كان
 الظهور لي ، كنتُ ملك الملتين ، والسلام . »

وروى ابن الاثير وابن خلكان رسالة قريبة من هذه ، واكثر
 تفصيلاً ، وعلق ابن خلكان عليها بقوله : « ان نص هذه الرسالة
 كتب مثله الاذفونش بن فردكند (الفونس السادس بن فردينان)
 الى امير المسلمين يوسف بن تاشفين . » ومهما يكن من شيء فان

الرسالتين لا تختلفان في المعنى وفي طريقة الاستفزاز . فلما وصل الكتاب الى الخليفة المنصور ، تلمظ غيظاً من صلف الملك الاسباني واستخفافه المبين . فامر ولده وولي عهد السيد محمداً بالرد عليه . فكتب على ظهره الآية : « ارجع اليهم ، فلتأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولتخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون . » ثم اصاب اليها : الجواب ما ترى لا ما تسمع :

ولا كتب إلا المشرفية والقنا ولا رسل إلا الخميس العرمرم وما كان من المنصور بعد ان تلقى كتاب الفس ورد عليه الا ان نشط للحرب يعد اهبطه ، ويعبىء الجيوش ويبعثها الى الاندلس ، حتى اذا تم له الحشد العظيم عبر الى الجزيرة الخضراء ، فانضمت الى جنوده العساكر الاندلسية ، فتألف منها جميعاً جحفل جرار يضيق عنه الفضاء ، كما يعبر ابن الاثير ، وتقدره بعض الروايات المغالية بستائة الف مقاتل . وكان الجيش النظامي فيه مؤلفاً من قوات الموحدين الخاصة ، ومن الفيالق الاندلسية ، وسائر جموع غفيرة غير نظامية من قبائل العرب والبربر الراغبين في الحرب والجهاد .

ومما يجدر ذكره ان جيش الموحدين النظامي كان من ارقى الجيوش في ذلك العصر ، ويعود الفضل في انشائه وتنظيمه الى الامير عبد المؤمن خليفة المهدي ، فانه كان ذا خبرة عظيمة في

١ الاضافة رواها ابن الاثير وألحق ابن خلدكان بها الشمر ، وهو للفتي ، ولعل الرواية التي تكتفي بالاية وحدها هي الصحيحة .

تدريب الجيوش وقيادتها، وادارة حركاتها . فقد ابنتى في مراکش مدرسة عسكرية يجتمع بها نحو ثلاثة الاف طالب من الاشراف . يسمون الحفاظ وطلبة العلم . وكان يمتحنهم بنفسه ليقف على تقدمهم في فنون القتال ، فيشهد رياضتهم على ابواب الطعن والضرب والرمي والمبارزة ، والعدو وركوب الخيل ، والسباحة وقيادة السفن والوثب الى سفن الاعداء ومعارك البحار . فهذه العناية بتنظيم الحند ضمنت للموحدين جيشاً مدرباً اجمل تدريب ، يطمئنون اليه في محاربة اعدائهم ، ويحني لهم الظهر في اغلب المواقع .

وكان الخليفة المنصور برمي في زحفه الرهيب الى مساورة طليطلة عاصمة قشتالة . فبلغه ان الفنس الثامن حشد جيوشه بين قرطبة وقلعة رباح (Galatrava) بالقرب من حصن الأرك (Alarcos) ويسميه ابن الاثير وابن خلكان مرج الحديد . فغير خطته ودلف الى لقاءه حيث يرابط بعساكره . فلما صار منه على مسافة يومين عقد مجلساً للشورى من كبار القواد واصحاب الرأي ، ليتفقوا على الطرق التي ينبغي اتباعها . وكان القواد الاندلسيون ادرى من غيرهم بمكايدة الاسبان ، ومعاكسة اساليبهم ، فأحس ان يسترشد بنصائحهم ، فاستشار خصوصاً القائد ابا عبد الله بن صناديد ، لما يعرف عنه من الحكمة وصدق النظر . فأشار عليه بتوحيد القيادة وخطه القتال ، وان يعهد في قيادة العساكر الاندلسية الى رؤسائهم ، لانهم لا يحسنون الحرب ، ولا يتحمسون لها اذا اقيم عليهم قواد غرباء . وأشار

ايضاً بان تقدم الجنود النظامية لمجابهة العدو والتقاء حملته اذا حمل، وان تبقى القوات غير النظامية واقفة على اهبتها احتياطاً للنجدة، وان ينزل الخليفة بحرسه الابيض والاسود وراء التلال القريبة، فاذا تراوح الفريقان غار النصر فاجأ العدو بهجوم صاعق فيقضي عليه.

فاستحسن المنصور هذه الاراء وامر القادة بالتزامها. ثم اناط الرئاسة العليا بوزيره ابي يحيى بن ابي حفص وكان، على شجاعته، صاحب خبرة ودراية.

واما جيش قشتالة فلم يكن ضئيل الحشد. فهو على رواية المستشرق جوزف اشباخ يزيد على مائة الف مقاتل، وتبالغ الرواية العربية فيه فترفعه الى ثلاثمائة الف. ومع ذلك كان لا يوازي جيش الموحدين في عدده، فان تعبيتهم يفوتها الحصر والاحصاء. واعتمد الفنس على الاخص منظمات الفروسية المسيحية كفرسان الداوية^١، وفرسان قلعة رباح، وغيرهم من جماعات الفروسية في مملكته. بيد انه استعظم الخطب حين انتهى اليه خبر تعبئة الموحدين، فخشي سوء العاقبة اذا لقيهم بجيشه دون غيره. فكتب الى نسيبه ملك لاون وملك السافار يدعوهما لترك الاحقاد، والمبادرة الى مساعدته. فأجاباه الى طلبه نزولاً عند رغبة الشعب المتحمس. وحشدا العساكر وسارا بها اليه، إلا انهما

١ فرسان الداوية هي جماعة فرسان الهيكل Les templiers نظما الفرنجة في القدس سنة ١١١٨ لحماية القبر المقدس، ثم انشئ لها فرع في اسبانية.

كانا يزحفان بطيئاً ليصلا بعد فوات الاوان ، حتى يئس الفنس من مجيئهما ، ولم يبق له سبيل غير مباشرة القتال . وابتدأ ان يتحصن بالقلاع التي بين يديه فتمنعه ما طاب للمسلمين الحصار ، وكأنه عد ذلك عاراً ومذمة ، فاختار الهجوم مستتبلاً متكللاً على حمية فرسانه . فابتدأت موقعة الارك في ١٩ تموز ١١٩٥ (٩ شعبان ٥٩١ هـ) .

وكان الموحدون يحمون القلب بقواتهم النظامية ، والاندرلسيون في المينة يقودهم عبدالله بن صناديد ، وقبائل العرب البربر في الميسرة ، والخليفة المنصور بحرسه وراء التلال . وعسكر الجيش الاسباني في مرتفع تحميه قلعة الارك من جانب ، وبعض التلال من جانب آخر . فزحفت اليه مقدمة المسلمين من المتطوعة تمهد للمعركة بسهامها . فما تدانوا من التل الذي عليه الفنس حتى تجارى اليهم نحو ثمانية الاف من كل فارس غارق في الحديد ، فالتقتهم المطوعة يساندها القلب والجناح الايسر . فتعالى الصياح ، واستكت اذان الفضاء من وقع سنابك الخيل ، وتجاوب اصوات الابواق والطبول . ثم استطال المسلمون فكسروا من حدة القشتاليين وردوهم على اعقابهم . غير أنهم ما عتموا ان جمعوا شملهم ، وجددوا الحملة عليهم ، فردوهم ثانية . ولكنهم كانوا عنُداً صلاباً ، فلم تن عزائمهم بعد الرذتين بل ضاعفوا قواهم ، واندفعوا نائلة كالعاصف الجارف وقد احنقتهم الخيبة ، وزادتهم حماسة واقداماً ، فاخترقوا صفوف العدو وتوغلوا في الجناح الايسر فزقوه ، وشتتوا

جمعه فهلك الوف من قبائل العرب والبربر ، غير الجنود
النظامية ، ولم تم خطة عبدالله بن صناديد اذ اشار بان يتركوا
الميسرة للاحتياط والامداد .

ثم عطف القشتاليون على القلب وهو مرتعش مذعور لانكسار
حائطه الشمالي ، فصدعوا جافه ناشيين في احشاء الموحدين ، يقلبون
بعضها على بعض ، ويشطرونها اجزاء ، فتساقطت جثث القتلى
اكداً ، وغصت حاجر الارض من ابتلاع الدماء . ولشد ما
عظمت فجيعة الموحدين بالقائد الاعلى ابي يحيى بن ابي حفص ،
تلقفته سيوف الاسبان بعد ان بلوا من سيفه امر البلاء . وعندئذ
علا التكبير من الجناح الايمن وحملت العساكر الاندلسية وبعض
بطون زناة يتقدمهم القائد المجرى عبدالله بن صناديد ، فاقتحموا
قلب الجيش القشتالي ، وحجزوا بينه وبين فرسانه الطاعنين في
قلب الموحدين . وكان الملك النفس يتولى قيادته بنفسه ، ومعه
عشرة آلاف فارس ، فيهم الداوية وفرسان قلعة رباح ، فتلقاهم
ثابت الجناح يصابهم على قلة عدد ، ويدفع تيارات امواجهم
المتهاجرة . وفيما الاندلسيون يوائون سفح التل والنفس يدافعهم
عنه ، ووراءهم فرسان قشتالة يززعون قلب الموحدين بعد ما
شردوا الميسرة ، وفيما النصر يراوح بين الجانبين لا يدري له
مستقراً ، اذا بالطبول تفرع من وراء الاكام ، والخليفة المنصور
يطلع بحرسه المختار ، امامه العلم الابيض منقوشاً عليه : « لا اله
إلا الله ، محمد رسول الله ، لا غالب إلا الله . » فينقض على فوارس
قشتالة وهم يعمنون في القلب ارهاقاً ، فيلأم صدعه الدامي ، ويردغم

عنه مندحرين . فعاود الامل جنود الموحدين ، واشتدت سواعدهم
بمسد ارتخاء ، فساوروا اعداءهم كالليوث مستبشرين بالنصر ، لا
يبالون ما يكلفهم من الضحايا هجورهم المجنون . فما زاوا بهم حتى
حطموا شوكتهم ، فانهمزموا شواطيط الى سفح التل يلوذون
بالفنس .

وابي خليفة الموحدين ان يتصرم النهار قبل ان يحرز النصر
كاملاً ، فشى بالعدد الاوفر الى التل يخرق قلبه ، ويساند قوات
الاندلسيين ، فدافعت فرسان الداوية وقلعة رباح عن ملكها امجد
دفاع ، فكانوا يتساقطون من حوله صرعى ، لا يحدثون النفس
بالفرار ، حتى لم يبق منهم الا فضلة يسيرة لا تستطيع زياداً ،
فخشيت ان يفتك الاعداء بسيدها وهو مصر على الثبات لا يطيق
براحاً ، فاكرهته على الانكفاء ، فانقذت حياته وكان بوده لو
يبدلها سماحاً .

ثم اقتحم المسلمون حصن الارك ، فاستنزلوا اصحابه واستولوا
عليه . وهاجوا قلعة رباح فامتلكوها وكان فرسانها قد تخلوا
عنها . وانتهت المعركة بانكسار ساحق للاسبانيين .

يقول ابن خلدون ان المسيحيين خسروا في هذه الواقعة
ثلاثين الف قتيل . اما ابن الاثير فيجعل القتلى ستة واربعين الفاً
ومائة الف ، والاسرى ثلاثة عشر الفاً . ويقدر قتلى المسلمين
بنحو عشرين الفاً . وكانت الغنائم عظيمة جداً .

قال ابن خلكان : « وغنم المسلمون أموالهم حتى قيل ان
الذي حصل لبيت المال من دروعهم ستون الف درع . واما

الدواب على اختلاف انواعها فلم يحصر لها عدد . ولم يسمع في بلاد الاندلس بكسرة مثلها . «

فمركة الارك ، لا جرم ، ثلث عز قشتالة ، وهتكت حرمة سلطانها . وما كان الامراء المسيحيون يتوقعون لها هذه الكارثة الشنعاء ، وقد بلوا صولتها وجبروتها ، فوقعت هيبة الموحدين في نفوسهم ، وداخلهم انخوف على اماراتهم ، فاسرعت مملكتنا لاون والنافار الى محالفة الخليفة المنصور ، وهما في خذلها لالفنس الثامن ، وتأخرها عن نجاته ، اوصلتاه الى هذه النتيجة الفاجعة . يضاف الى ذلك ما لقي المسلمون من مساعدة الكونت بدر و احد ابناء كاسترو ، فقد كان هذا الامير فاراً عن وطنه مع اعوانه ، ناقماً على قشتالة التي رفعت اسرة لارا باذلال اسرته ، فلم يتأثم ان يبيع امته ويقدم سيفه للموحدين .

ثم ان الملك الفنس رأى ان يحذو حذو لاون والنافار فيسترضي المنصور ويلتمس منه الهدنة بعد ما ابصر جيوش المسلمين تتابع الغزوات في ولاياته ، تلتف الزرع ، وتقطع الشجر ، وتبلغ ابواب طليطلة ، وهو لا يجرؤ ان يخرج الى لقاءها ، بل يرى الخير ، من خوفه ، في الامتناع بقلاعه وحصونه . وقد رضى المنصور بمهادنته لانه كان مضطراً الى مغادرة الجزيرة ليخمد ثورة لا يبرح يشعلها في افريقية والمغرب بقايا المرابطين . فعاد الى مراکش يصلح من شؤونها ، وامنت رياض الاندلس شر اسبانية زمنياً ، ولكنها ما نالت من نعم الاستقلال الذي حاربت عليه الامارات المرابطية والمسيحية إلاشارة الخضوع لسيطرة الموحدين .

معركة العقاب

بين معركة الارك ومعركة العقاب سبع عشرة من السنين
ساقطت ورقات يومياتها عن احداث وشؤون كانت بطبيعتها
معلولاً للاولى، وعلّة للاخرى. فان انتصار امير الموحدين على
قشتالة، وما تلاه من خضوع الفنس الثامن لسيفه، والتماسه الهدنة
منه، واسراع ملكي لاون والنافار الى محالفته وخطب وده،
مكن سلطانه في الاندلس، وحرمته في النفوس، واتيح له ان
يتفرغ الى اصلاح فتوق مملكته، وتأديب العصاة والثائرين دون
ان يصرف النظر عن امراء اسبانية، وما في صدورهم من ضغائن
يعفظها بعضهم لبعض. فقد كان المنصور، على علو همته، وافر
الذكاء، بعيد النظر، لا يسقط عنه ان يستغل خلافهم لمفعمته وخير

امته ، وهو يعلم انه ما دام الشر معصراً بينهم ، لا يرتفع لهم صوت جهير ، ولا ينفسي عليهم ظل ممدود ، في بقاع يعمرها الاسلام . أفما يجدر به ان يحرك فيهم ، من وراء حجاب ، لاعج العدوان ، فتنام الاندلس على امن وسكينة ، وتشرق اسبانية المسيحية بدمها الى يوم يوهنها النزف ، فترتمي متلاشية على اقدام المسامين ؟ فلاون والنافار متعطشان للانتقام من قشتالة واذلالها لما تفرض عليهما من السيطرة ، فطبعي ان تستهينا جانبها جزاء كسرتها ، فتستنزلاها الى محاربتهما بعد ان تخللتا تخومها عاديتين بتجريض الموحدين ، ووعدهم بالمساعدة .

وذهب المنصور الى ابعد في توسيع الخرق بين الامراء المسيحيين ، فحاول ان يجعل حليفه ملك النافار تابعاً له ، على ان يزوجه احدي بناته . وتقول الرواية الاسبانية ان شانجه السابع اغتر بهذه المواعيد فقصده الى مراکش بغية تحقيقها ، توأكه كتيبة من المرسان . بيد ان الرواية العربية لا تذكر شيئاً من خمر الزواج ، بل تقول ان ملك النافار جاء اشبيلية سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) ليزور الخليفة الناصر ابن المنصور . ومهما يكن من امر الزيارة وزمنها ومكانها فان المصاهرة لم تربط اوامرهما بين الاميرين ، فرجع شانجه الى مملكته فارغ الفؤاد ، وقد علم ان الزواج من اميرة موحدية يدعوه الى الاسلام ، وباسلامه لا يطمئن له عرش النافار .

على ان هذه الجهود التي بذلها المنصور لتمكين سلطانه ، واضعاف ملوك اسبانية ، لم تلبث ان تراخت عزائمها بموته سنة

١١٩٩ م (٥٩٥ هـ) وقيام ولده محمد ابي عبدالله الناصر . فان هذا الامير مع شجاعته ، لم تكن له مواهب ابيه ، وصلابة عوده ، فاسلم ارادته الى حاجبه ابي سعيد بن جامع ، فورطه في مزلق لا تنبىء عن امانة الوزير واخلاصه .

وكان هم الخليفة الجديد ان يترسم اياه في ضبط الولايات الاندلسية ، وارهاق ملوك اسبانية مستثمراً شقاقهم ، غير انه لم يتمكن من الالتفات الى عدوة ارووة الا بعد ان دفع خطر المرابطين عن افريقية ، وازال بقية دولتهم في الجزائر الشرقية (Baléares) (١٢٠٨ م) .

وكان البابا اينوسان الثالث قد استطاع ، في تلك الاثناء ، بسلطانه الديني ، ان يصلح بين الامراء الاسانيين الى حين ، ويؤلف قلوبهم على محاربة المسلمين . فنشط الفنس الثامن ملك قشتالة الى غزو الاندلس (١٢٠٩) فأوغل فيها باطشاً فاتكاً . ثم اغار عليها ثانية (١٢١٠) فانتسف كورة جيان (Jaén) وبياسة (Baéza) واندوجار (Andujar) وعاد في المرتين بجلائل السبايا والغنائم . فعندئذ نادى الخليفة الناصر بالجهاد ، وقد راعه تغلب العدو على كثير من الحصون الاندلسية ، فجمع الجموع وحشد العساكر ، حتى بلغت تعبئته ستمائة الف فارس وراجل ، فعبر المضيق الى اشبيلية (١٢١١ م - ٦٠٧ هـ) يستعد للقتال . فنصح له حاجبه ابن جامع الا يتقدم في بلاد الفنس قبل ان يفتح قلعة شلبطرة (Salvatierra) ، فساورها ثمانية اشهر ، وهي ممتعة عليه لحصاتها ، فهلك دونها الوف ، وابن جامع

يمنع الناصر ان يرفع الحصار عنها ، ويتجاوزها الى طليطلة ، حتى
اضر بها الجوع المرير فاعطت قيادها مكرهه ، بعد ما انتقدت
اسبانية المسيحية بصبرها الطويل كما يقول جوزف اشباخ : ذلك
بانها اتاحت لالفنس الثامن ان يستصرخ دول اسبانية خصوصاً
واروبه عموماً لتجهيز حملة صليبية غربية تذكر المسامين بحملات
الصليبيين في الشرق . فقد ازعجه ما انتهى اليه من انباء قوات
الموحدين ، وزحفها الجرار ، ولاح له الخطر المخوف ينقض على
قشتالة ، بل على الامارات الاسبانية بمجموعة ، وهيبات لا يرجى
دفعه عنها ، الا اذا تظاهرت عليه وتناست احقادها ، وخير لها
ان تستنجد ابناء ملتها في الغرب . فبعث جرهاارد مطران سقوية
(Ségovia) الى رومة يلتمس من الحبر الاعظم ان يدعو الامم
المسيحية الى نصره الصليب . وبعث المؤرخ ردرىق مطران
طليطلة وسواه من المطارنة الى فرنسا وما يليها من الدول
الاروية ليستثيروا الشعور الديني ، مبينين الخطر الذي يهدد
النصرانية ، ودعا الامراء الاسبانيين الى الاجتماع والمفاوضة ووضع
الخطط التي ينبغي اتباعها . فتكلت هذه المساعي بالنجاح المأمول ،
ولبت اروبة دعوة الكرسي الرسولي ، ونداء الاساقفة المتحمس ،
واقنع ملوك اسبانية بضرورة الاتحاد . فما طال الامد حتى
بدأت الوفود تتلاحق الى طليطلة من مختلف الامصار الاروية
ولا سيما فرنسا ، حاملين شارة الصليب دليل الزيادة عن الدين ،
يتقدمهم كبار الاحبار يستحثونهم ، ويوقدون الحمية في الصدور .
يقول جوزف اشباخ ان جيش الوافدين بلغ في اوائل حزيران

١٢١٢ اكثر من عشرة الاف فارس ، ومائة الف راجل ، فيه من القوامس ما يقدر بالفين ، اصف اليه ما ارسلت فرنسا وايطاليا من المال والمؤن والسلاح .

واما الجيوش الاسبانية فاول من قدم منها جيش ارغون يقوده عاهله بدرو الثاني ، وفيه طبقة مختارة من الكماة كجماعة الداوية (فرسان الهيكل) . وتتابع بعدة الفيالق من لاون وجليقية والبرتغال حتى فاضت طليطلة وارباضها بالعساكر المنتشرة ، والخيام المنتصبة ، والخيل والعتاد . ثم زحفت هذه القوى العظيمة طاللة قلعة رباح ، وفرسان هذه القلعة يلتهبون حماسة لاسترجاعها . وكان فيها حامية من الموحدين على رأسها القائد يوسف بن قادس ، فهاجمتها الجيوش المسيحية دفعة واحدة ، فاستولت على المدينة دون القلعة . فخشي ابن قادس مغبة الحصار اذا افتتحت القلعة عنوة ، وهي لا محالة ساقطة في ايدي العدو ، فمن العث ان تحاول قلتها مقاومة الكثرة . فآثر ان ينقذ حاميها من الهلاك بالاستسلام اذ لا ينفع الدفاع فتيلاً . فبعث الى ملك قشتالة رسولا يفاوضه من قبله مشروطاً ان تخرج الحامية بسلاحها مأمونة . فرفض الارغونيون ووفود المحاربين هذا الشرط ، وطلبوا متابعة الحصار ، فاضطر ابن قادس ان يرضى بتجريد الحامية ، فغادرت القلعة بعد ان اخذت الامان على نفوسها ، وتولى الفرسان الاسبانيون حراستها مخافة ان يفتك بها جند الوافدين لانهم كانوا يريدون قتالها وقد اغضبهم تأمينها . فسار بها ابن قادس الى الخليفة الناصر ، فاطلعه على ما

قام به من التدابير لحقن دماء المسلمين حيث لا يفيد بذلها .
ولكن ابن جامع ابني الا ان ينزل القصاص بالقائد الحكيم ،
فاغرى الناصر به متهماً اياه بالتقصير والخيانة ، فقتل المسكين
وطابت نفس الحاجب الماكر . فاستاء الناس لهذا الحادث ولا
سيما الاندلسيون ، وكانوا يكرهون ابن جامع لتكرار مكايده .
فابدوا نفورهم من عمل الناصر ، وهم انما جاؤوا للحرب متثاقلين ،
ساخطين على الموحدين كما سخطوا من قبل على المرابطين . كيف
لا وما زالوا يشعرون بصياغ حقوقهم شعورهم بالامس . أفترام
يحسنون القتال ، ويثبتون للضرب والطعان ، وفي الصدور
حزازات وشهوات لا يسكنها الا الخذال الموحدين ، لعل
الاستقلال اليهم يعود ؟ ومثل هذه الحالة النفسية ، في جيش يتأهب
للكفاح ، ينذر ، ولا بد ، بخطب جليل .

وكذلك العساكر المسيحية لم تسلم من التصدع على اثر استنزال
الحامية من قلعة رباح مأمونة فان وفود الفرنجة ما لبثوا ان
جاهروا بامتعضهم من الاسبانيين ، فقفلوا راجعين الى اوطانهم
متهمين ملك قشتالة بانه استأثر بنفائس القلعة واموالها . وقيل
ان عدد الذين رجعوا يبلغ خمسين الفاً من مائة الف . إلا ان
انفصالهم عن الجيش قبل المعركة كان اخف ضرراً مما لو انفصلوا
في اثنائها ، ووقعوا خلافاً فجائياً ، يصعب تلافيه ، في ترتيب
الصفوف ، وتنظيم اجزائها . فقد استطاع الاسبانيون بعد رجوع
هؤلاء المحاربين ان يجمعوا انفسهم ، وبدلفوا بقدم ثابتة الى
حصن الارك ، ولهم فيه اوجع الذكريات ، فيفتتحوه بيسر

مستبشرين . وفيما هم يتقدمون الى لقاء الناصر ، وافاهم شائجه ملك
النافار بجيشه فرأب الخلل الذي احدثه اياب الفرنجة المطوعين .
روى المستشرق جوزف اشباخ ان الناصر بقي يتحامي اصطلاء
المعركة على ضخامة جيشه ، خوفاً من المحاربين الصليبيين لان
شجاعة فرسان الفرنجة طارت شهرتها من الشرق الى الغرب ، فلما
بلغه انهم انفصلوا عن الاسبانيين ، ورجعوا الى بلادهم ، زالت
وساوسه ووطن النية على طلب القتال ، والسير الى العدو .

وكان الاسبانيون قد تقدموا الى جبل الشارات (Sierra Morena)
في ١٢ حزيران ، وامتلكوا ، على بعض قممه ، قلعة للموحدين ، فبادر
الناصر ، فعبر الوادي الكبير الى الموضع المعروف بالعقاب
(Las Navas de Tolosa) وسد بجيشه منافذ جبل الشارات ،
فتأزم موقف المسيحيين في شعافه ، اذ اصبحوا متعذراً عليهم
هبوط السهل لملاقاة الموحدين ، فهم مضطرون الى احد امرين :
اما البقاء وتعريض النفس للجوع والعطش ، واما الرحيل حيث
يتحدث الناس عنهم بالهزيمة بعد ان حشدوا قوات الممالك
الاسبانية .

وفصل المستشرق جوزف اشباخ هذه المعركة تفصيلاً دقيقاً
رأينا ان نستند اليه في وصفها وذكر احوالها . فان ملوك الاسبان
بعد ما وقفوا حائرين بين اللبث والقفول ، والنفوس الثامن اشدهم

١ قد تكون العقاب جمعاً يعني عقاب الجبل مفرداً نقبة ، وقد تكون مفرداً
بمعنى الطائر المعروف الذي يجتل القعم العالية ، يعزز ذلك ان روض القرطاس يسمى
المكان بحصن العقبان .

عناداً وكرهاً للتقهقر والرجوع ، تمكنوا من الانحدار الى السهل
 بطريق خفي ارشدهم اليه بعض الرعاة ، فسار امامهم دليلاً حتى
 بلغ بهم مسلكاً صالحاً ينزل منه الى سهل ابدة (Ubeda) ،
 فاعتبر المسيحيون هذا الراعي رسولاً من لدن الله . وانتقلت
 جيوشهم من الجبل الى السهل دون ان ينتبه المسلمون لحركاتهم ،
 ذلك بان الملوك الثلاثة ظلوا في القلعة لا يغادرونها حتى تم انتقال
 العساكر . فلما خلا منهم جبل الشارات ظن الموحدون انهم احمدوا
 الفرار ، وضجروا من البقاء . ولكن ما عتموا ان ابصروا معسكرهم
 في السهل المقابل ، فعلموا انهم خدعوا ، ولم يفتنوا لانتقال العدو
 فتركوه يحتل مكاناً افضل من مكانهم ، يشرف عليهم من الرابي
 العالية . بيد ان الناصر كان معتداً بعظمة جيشه فلم يبال هذا
 التبدل في الموقف ، واعتقد ان النصرى لا يصبرون طويلاً على
 حربه ، وسيحتاجون الى المؤن والذخائر في انقطاعهم عن قشتالة .
 فبايدي عساكره المحصورون الجبلية جميعاً ، ومنها القلعة التي احتلها
 الاسبانيون في البدء على جبل الشارات . فما تلكاً ان باشر الدعوة
 للقتال ، فأبوها في اليوم الاول لما هم عليه من التعب . ثم أبوها
 في اليوم التالي لانه يوم احد فكرهوا ان يحاربوا فيه . فلما
 كان صباح الاثنين في ١٦ تموز ١٢١٢ (١٥ صفر ٦٠٩ هـ) اقام
 الاساقفة الصلاة ومنحوا الجلود البركة الرسولية ، والغفران الكامل .
 ثم جعل الملوك والقواد ينظمون جيوشهم ، فوقف النفس الثامن
 ملك قشتالة في القلب يدير حركاته ، ويشرف منه على سائر
 الاقسام . ويتألف القلب من اربع فرق ، احداها فرقة الجبلين

القشتاليين يتقدمها القائد ذو هارو . والثانية فرقة فرسان قلعة رباح ، وشنت ياقب ' (Santiago) ، والداوية ، والاسبتارية^٢ (Les Hospitaliers) ، يتقدمها الكونت ذو لارا . والثالثة فرقة فرسان قشتالة القديمة ، واشتوريش (Asturias) ، وبسكونية (Biscay) ، يتقدمها الكونت رذريق دياز . والرابعة الفرقة الاحتياطية من طليطلة ولاون يقودها الملك الفنس بنفسه .
واما الجناح الايمن فكان على رأسه شانجه السابع ملك النافار ، وفيه جنوده وفرسانه ، والكماة الفرنسيون الذين آثروا البقاء ، وفيه جنود جليقية والبرتغال يتقدمهم الامير بدرو البرتغالي .

وينقسم الجناح الايسر على اربع فرق تضم العساكر الارغونية وبعض رجالة قشتالة ، يتقدمه بدرو الثاني ملك ارغون . واصطفت عساكر المسلمين في سهل العقاب مقابل أبدة ، مقسومة على خمس فرق ، يتألف منها الخميس العرمرم . ففي المقدمة فرقة المطوعة ، وتجعلها الرواية العربية ستين الفا ومائة الف . وفي الميمنة الجنود الاندلسية . وفي الميسرة البرابرة . وفي القلب جيش الموحدين . وفي المؤخرة الفرقة الاحتياطية من المغاربة والجيش النظامي . وبين القلب والمؤخرة نصبت للخليفة القبة

١ انشئت جماعة فرسان شنت ياقب في حايقبة سنة ١١٦١ واففة حياتها على الذود عن الدين ، وكان شعارها سيف القديس يعقوب دامياً في صورة الصليب .

٢ نشأت جماعة الاسبتارية (فرسان المستشفى) في القدس على اثر نشوء الداوية. وساهمت في الحروب الصليبية ، وحماية القبر المقدس ، وقام لها في اسبانية فرع كما قام للداوية.

التقليدية الحمراء التي ورثها المسلمون عن عرب الجاهلية ، وامامها
جواده مسرجاً ، يحيط بها حرسه الخاص من الفرسان والمشاة ،
بايديهم الرماح الممدودة ، ودون الوصول اليهم دائرة شدت من
سلاسل الحديد .

وما انتهى تنظيم الجيوش حتى تجاوزت اصوات الطول والابواق
من الجانبين ، فارتجت لها الرابي والسهول ، واذا الخليفة الناصر يخرج
من قنقه عليه عباءة سوداء . فرفع المصحف بيد والسيف بالآخري ،
اشارة الهجوم ، فحملت الملوحة خفيفة عنيفة تلطم القلب ، فالتقاها
الجليون وجماعات الفرسان بحملة معاكسة ألانت من حدتها . ثم
لم يلبثوا ان استطالوا عليها واكثروا من الفتك بها فاضطروها الى
الفرار ، فانهزمت امامهم وهم يطاردونها بالحراب في اقفائها . فلما
اقتربوا من القلب يبغونه ، صدمتهم قوى الموحدن النظامية ،
فأروا امامهم جنوداً باسلة ، مجرة في الحروب ، مدربة احسن
تدريب . وما طال الامر حتى تمزقت جموعهم ، فقتلتوا عنها منهزمين .
فرجحت كفة المسلمين ولاح لهم وامض النصر ، فهلوا مستبشرين .
ولم يكن ملك قشتالة يتوقع هذا الفشل من القلب وفيه صيانة
الفروسية الاسبانية ، فطار رشده ، واشتهت نفسه الموت فشى الى
المعركة يريد ان يخوضها بفرقة الاحتياطية ، فمنعه المطران رديق
والقوامس ان يغرق بحياته ، والتمسوا منه ان يكتبني بانعاش القلب
المتدهور ، فأمدته نجدة مختارة يتقدمها الاساقفة ، يحملون الرايات
عليها صور الطفل الالهي وامه البتول ، فاستثاروا بها حماسة
الفرسان المنهزمين ، فعاد اليهم نشاطهم ، واتاح لهم هذا المدد ان

يلماوا شعثهم المنتشر، ويكروا ثانية على جيش الموحدين ينقرون
 حبة قلبه، ويرمقون دائرة السلاسل حيث الخليفة الناصر، والقبه
 الحمراء. ومن دون الدائرة احوال تختطف عليها الاعمار، فليس
 صدع القلب بالهين السهل، وفيه نخبة الجيش النظامي. ووراء
 السلاسل عدد كثير من الحراس الاشواس يحرسون القبه بغابة
 من عوامل الرماح. ولكن قد تجري الاقدار بما لا يتوقع
 الانسان، فبينما فوارس قشتالة يصكون القلب والقلب ثابت لا
 يتحلجل، اذا الجناح الايمن يلتوي فجأة وبنهزم الاندلسيون
 تاركين رفاقهم، وكانوا، كما علمنا، ناقلين على الموحدين يضمرون
 لهم الشر، فلم يقاتلوا قتالهم المعهود في المعارك التي يصطلونها
 متحمسين. وهم كعادتهم متهورون في اعمالهم لا يفكرون تفكيراً
 صحيحاً في نتيجة ما يصنعون. وما كادت الميمنة تتعطل حتى
 مشت الميسرة على اثرها فتقصف جناح البربر، وبقي القلب عارياً
 من الجانبين يدافع الاسبانيين ويصارهم، وهؤلاء قد ازدادوا
 حمية واقداماً بعد تحطيم الجناحين، فصدعوا القلب الجريء واوغلوا
 في اوساطه يقرعون دائرة السلاسل، فجرت امامها انهار من
 الدماء، وتكدست حولها جثث القتلى تلالاً. الموحدون في القلب
 مخرقة صفوفهم، يستميتون مقاومة ودفاعاً. والمغاربة في المؤخرة
 يقدمون لسد الثامات غصباً. والاحراس البيض والسود يطاعنون
 الخيل عن حرم القبه وحرم الخلافة: مشهد رائع تجلت فيه
 البطولة الاسلامية باجمل معانيها، تغالب اليأس، واليأس غالبها،
 وترتجي الظفر وقد اشاح بوجهه عنها. اقبل الحظ على الاسبانيين،

وما كانوا دون اعدائهم جراءة وعناداً ، فشدوا عليهم ملحجين ، يستعجلون النصر قبل هزيمة النهار ، لا يبالون في كسبه خسارة الارواح ، فهم يشقون الصفوف ويتقدمون ، وهم يحيطون بدائرة السلاسل فيقتحمها الكونت ذو لارا واثباً بجهاات الفرسان ، ويقتحمها شانجه ملك النافار وبدرو ملك ارغون من اليمين والشمال ، فانهارت قوى الدفاع من كل جانب ، واستمات الحراس على غير جدوي وفي القبة الحمراء سيد الموحدين ، قاعد على درفته ، يتلقى الانباء سيئاً بعد سيء ، متجلداً مكفهرأ ، حتى جاءه النبأ الاسوأ : قتل ابنه واعتصم الجيش بالفرار ! فوقف الناصر حينئذ وقال : « صدق الرحمن وكذب الشيطان ! » ثم ركب حصانه المرسج ونجا بجماعة من اصحابه .

وكأن المسيحيين ، وقد اخذتهم نشوة القلب ، ابو الا ان يعيدوا الطعن في اثر الهاربين ، فتعقبوهم تشفياً ، وانتقاماً ، فقتلوا منهم في اثناء الهزيمة اكثر مما قتلوا في اثناء المعركة . وتقول الرواية العربية ان حسارة المسلمين كانت جسيمة جداً اذ لم ينج منهم سوى مائة الف من ستمائة الف مقاتل . في حين ان الرواية الاسبانية اكثر اعتدالاً في حسابها ، فلا ترفع خسارة العدو الى اعظم من مائتي الف ، ولكنها تجمع في الوقت نفسه على ان خسارة المسيحيين ليست بذات شأن . وهذا صعب التصديق ، لان الحرب في مرحلتها الاولى كانت دائرة على الاسبانيين ، ثم ان اقتحام السلاسل ما تم لهم الا بعد تضحيات جلية وبلاء كبير ، فغير معقول ان تكون خسائرهم لا تستحق

الذكر كما يزعم الرواة الاسبانيون . بيد انها تبدو ضئيلة اذا
قيست بخسائر اعدائهم ، لان فشل العساكر الاسلامية لم يقع على
صورة عادية مألوفة ، فقد تراجعت صفوفهم وتمزقت اشتاتاً قبل
ان تمنى بالانكسار ، فناها من التقتيل في ذعرها وتبددها شيء
عظيم ، وحقت عليها الهزيمة مع ان قواتها تبلغ ضعف قوت
المسيحيين ، وجيش الموحدين النظامي لا يفوقه جيش في بسالته
وتدريبه . فلا غرو ان يجعل النصراري ظفرهم مستمداً من الله ،
فتنشأ عندهم اسطورة دينية يثبتها بعض المؤرخين تقول بانه
ظهر في السماء ، قبيل المعركة ، صليب ساطع النور ، وتحتفل
طليلة كل سنة في ١٦ حزيران بعيد « اقتصار الصليب » ، مع
ان المراجع الوثيقة لا تذكر هذه المعجزة ، ولا ذكرها الفنس
الثامن في روايته لاختار المعركة .

على ان انكسار المسلمين ، وان بدا غريباً في ظاهره ، لا يلبث
ان يصبح طبيعياً اذا نظرنا الى العوامل التي احاطت به ، واهمها
تحاذل الجيش الاندلسي وانكناؤه في اوائل المعركة حيث تصدعت
الميمنة ، ثم تأثرتها الميسرة بفشل البرابرة ، وقلة ثباتهم امام شانه
السابع واجناد فرنسا والبرتغال والنافار . فاختل بذلك قلب الموحدين
واشتد عليه الضغط من الامام والجانبين . ويروي ابن خلدون حادثاً
آخر له اثر فعال في هزيمة الموحدين ، وهو ان صاحب لاون ،
ويسميه مرة ليهوج ، ومرة البيوج ، قد مكر بالخليفة الناصر ،
فقدم عليه فداخله ، واظهر النصح ، فبذل الخليفة له اموالاً ، فلما
كانت وقعة العقاب غدر الاسباني به وكر عليه يقاتله برجاله بدلاً

من ان يناصره كما وعد . غير اننا لا ندري من اراد ابن خلدون بصاحب لاون لان الاسم الذي ذكرها بعيدان في لغتهما عن اسم النفس (ملك لاون) واسم اخيه سانجه Sancho الذي كان يحارب في صفوف المسيحيين يوم العقاب . اما الرواية الاسبانية فلم تشر الى هذا الحادث ، وانما قالت ان النفس التاسع ملك لاون لم يحضر بنفسه الحرب لخلاف بينه وبين ملك قشتالة على بعض الحدود ، فاكتفى بان يعث اخاه سانجه مكانه .

فاذا صحت رواية ابن خلدون ، فان الناصر لا يعذر في اتكاله على مواعيد الامير الاسباني دون ان يحتاط لاضرارها ، منوقماً الكذب والخداع فيها . وكذلك كان قصير الرأي في استسلامه لصائح ابن جامع ، اذ حبس جيوشه ثمانية اشهر على حصار شلبطرة بدلاً من ان يقودها الى طليطلة فيسحق مملكة قشتالة قبل ان يتمكن النفس الثامن من جمع كلمة الامراء المسيحيين على مساعدته ، والاستفادة من نشاط الاحبار ودعوتهم الى الائتلاف تحت راية الصليب . فان زوال اماره قشتالة ، وهي اعظم دولة في اسبانية ، يفضي ، لا جرم ، الى اهباء سائر الامارات الاسبانية الواحدة تلو الاخرى . فان القوات التي حشدتها صاحب مراكش لمحاربة الاسبانيين جعل منها اضخم جيش عرفته القرون الوسطى . ولو احسن الحيلة والتدبير لكان من الممكن الا يقف في فتوحه عند الولايات الاندلسية التي غنمها المسيحيون وضموها الى ممالكهم ، بل يتخطاها الى الاراضي الاسبانية فيبسط عليها سلطانه .

ويلام ، وهو القائد الالى ، لغفلته عن حركة المدو وانتقاله
خفية من جبل الشارات حتى استطاع ان ينفذ الى أبدة ،
ويحتل في رباها مواقع تفضل مواقع المسلمين . ورأينا الناصر
يدعوه الى الحرب فيأبأها في اليوم الاول والثاني من وصوله
طلباً للراحة . ولا يجرؤ الناصر على مهاجمته ، مع علمه بتعبه ،
لمناعه روايه .

ويؤخذ على الموحدين ما يؤخذ على المرابطين من سياسة
الاستئثار بالحكم والنفوذ في الاندلس ، فأسأؤوا الى ابنائها ،
وحركوا الضغينة في نفوسهم ، فقدموا معهم الى الحرب وهم
مرصدون لمكروهم . فكان الجيش الاسلامي دون الجيش
المسيحي نشاطاً وأتلافاً وحماسة للدين ، فدارت عليه معركة العقاب
بشؤم الطالع ، فحققت قواه الجبارة ، واضعفت سلطان الموحدين
فالت بملكهم الى الغروب ، وكانت للمسلمين نذيراً بزوال كلمتهم
عن الاندلس ، والمسيحيين بشيراً بانقشاع خطر الاسلام عن
اسبانية جمعاء .

يوم قرطبة

بدأت ما تسم القواعد الاندلسية بسقوط طليطلة (١٠٨٥) ثم
بسقوط سرقسطة (١١١٨) . وبعدها استخذت بطليوس لملك لاون
(١٢٣٠) . واليوم دور قرطبة ام العواصم ، وحاضنة الاندلسيين في
الغرب ، تخط الطريق لسقوط بلنسية (١٢٣٨) واشبيلية (١٢٤٨)
الى ان يحين ما تم غرناطة آخر معقل عربي في اسبانية المسلمة ، فيغني
الشاعر الاندلسي مرثاته الاخيرة ، يبكي بها نعيم الفردوس المفقود .
وجاء دور قرطبة بعد ان مكثت خمسة قرون وربع قرن
في حوزة الاسلام ، تترد المسيحية عن ابوابها ، وامام حصونها
تنحل عزائم الاسبانيين . شهدت عز عبد الرحمن الناصر والحاجب
المنصور ، فكانت كالعروس ، حيناً بعد حين ، تتجلى لتزف في زينتها

لنصر جديد . ما اكثر اعراس قرطبة ، وابهج افراحها ! الملوك
تأتيها خاضعة ، واليها ترسل الهدايا خاطبة ودها . قوافل السبايا
والغنائم معروضة في اسواقها ، يكاد لا ينقطع النداء عليها .

قرطبة دار العلوم ، ومعهد الفنون والصنائع ، حرم الجامع
الكبير ذي السواري ، والدة الزهراء ذات القصور والحدائق ،
تشع انوارها على اروبة في دياجير القرون الوسطى ، هي الآن في
مأتم بعد عرس ، كما قال البحري في الايوان .

زالت عنها كلمة الموحدين بعد ان بات سلطانهم يتهاوى اثر
موقعة العقاب ، وران عليها سلطان محمد بن هود ، من اعقاب
امراء سرقسطة السالفين ، يضم اليه معها مرسية (Murcie)
وجيان وماردة (Mérida) وبطليوس ، متوسلاً بنقمة الاندلسيين
على الموحدين ، منادياً بكفرهم ، داعياً الى مقاتلتهم قتال الكفار ،
وتخليص الاندلس من طغيانهم . وتلقب بالمتوكل على الله ، ولبس
السواد شعار العباسيين ، معترفاً بخلافتهم ، راجعاً بامارته اليهم ،
ليسترضي جمهور المسامين بعد خلعه خلافة المغاربة اهل التوحيد .
فنجحت سياسته ، واقبل على مبايعته وطاعته اكثر الولايات
الاندلسية .

ولكنه كان مضطراً ، مع مغالبتة القوى الموحدية في دفاعها
عن بقية سلطانها ، الى مقاومة الامراء المسيحيين ، وهم لا يفترون
عن مناصبة الاندلس والافساد فيها . فلم يطق منع الفنس التاسع
ملك لاون ان يفتح بطليوس وماردة وغيرها من المدن والحصون .
إلا انه تمكن من الايقاع بالموحدين ، يساعده على ذلك ما بينهم

من شقاق ، اذ كان يتنازع الخلافة اميران منهم ، احدهما المأمون ، من ولد يعقوب المنصور ، والآخر المعتصم بالله يحيى بن محمد الناصر . فكان ابن هود يناجز المأمون ، ويعين عليه المعتصم احياناً ، حتى استطاع ان يستلب من يده حكم الاندلس بلداً بعد بلد ، وحصن غرناطة في الجملة (١٢٣٠) ، فالجأه الى استعانة النصارى ، فعل المرابطين والامويين من قبل . فصار لدى خليفة الموحدين اثنا عشر ألفاً من مرتزقة القشتاليين لحماية مراکش ورد المعتصم عنها . ونزل المأمون لملك قشتالة ، مقابل هذا المدد ، عن بعض الحصون المتاخمة ورضي بان تبني كنيسة في مراکش ، وان يؤذن للنصارى بقرع النواقيس . ووعد بان يدفع عنهم كل مساءة في مملكته ، واذا اسلم نصراني لا يُقبل اسلامه ، وانما يقبل المسلم اذا ما احب ان يتنصر .

غير ان الحامية القشتالية لم تقوَ على منع المعتصم من افتتاح مراکش ، وتهديم الكنيسة التي بنيت فيها ، وتقتيل النصارى ونهب اموالهم . وكان المأمون يومئذ في الاندلس ، وليس بيده من مدنها الكبرى غير اشبيلية ، فعبر الزقاق يريد انقاذ عاصمة المغرب ، فلم يكتب له التوفيق في محاربة المعتصم ، فمات فجأة (١١٣٢) وبويع بعده ابنه ابو محمد عبد الواحد فتلقب بالرشيد . وتابع مساورة المعتصم الى ان توفي هذا بفاس (١٢٣٦) .

وانقطع ملك الموحدين ، على اثر وفاة المأمون ، عن سائر الولايات الاندلسية خلا اشبيلية وما اليها . فعاد سلطان محمد بن هود يشمل مالقة (Malaga) والمرية (Almería) وغرناطة

وقرطبة ومرسية ، ينافس سلطان بني الاحمر في ارجونة (Arjona)
 ووادي آش (Guadix) وبياسة (Baéza) وجيان (Jaén) .
 وبنو الاحمر قبيلة عربية ترفع نسبها الى الخزرج ، وعميدها محمد
 ابن يوسف النصري . فاتفق هذا مع الاسبانيين على ان يمدوه
 بجيش لقتال ابن هود ، وان ينزل لهم عن بسائط الاندلس اذا
 استتب امره فيها . فاغتم هؤلاء الفرصة ، مستفيدين من خلاف
 الامراء المسلمين ، وانتقاض بعضهم على بعض ، فحشدوا جيوشهم ،
 وراح جايم (Jayme) ملك ارغون يعيث في امارة بلنسية ،
 وفردينان ملك قشتالة ولاون يخبط بعساكره الى قرطبة . وكان
 هذا قد بلغ من القوة شيئاً عظيماً اذ تمكن ان يجمع قشتالة
 ولاون مملكة واحدة بعد تناوبهما ، لارتباط نسبه بملكيهما ،
 وانتقال ارثهما اليه . ذلك انه عندما توفي الفنس النبيل صاحب
 قشتالة ، صار الملك بعده الى ولده هنري ، وكان قاصراً ، فتولت
 الوصاية عليه اخته برنجاريا . ثم توفي سنة ١٢١٧ فانتقل العرش
 اليها عملاً بوصية والدها . وكانت تعلم ان القشتاليين يكرهون
 حكم النساء ، فلم تشأ ان تترك الملك مزعزعا . وكان لها اولاد من
 زوجها الفنس التاسع ملك لاون ، وقد طلقها هذا نزولاً عند
 امر البابا لما بينهما من قرابة مانعة ، إلا ان الاولاد اعتبروا
 شرعيين . فاستدعت ابنها الاكبر فردينان وتنازلت له عن العرش ،
 فاغتبط القشتاليون لصنيعها ، وباعوا الملك الجديد وقدموا له
 الطاعة (١٢١٧) . ولما توفي الفنس التاسع ملك لاون (١٢٣٠)
 تحول عرشه الى ولده فردينان الثالث فاتحدت قشتالة ولاون

وزال ما بينهما من شقاق وخصام . وخفق لواء الملك الجديد على دولتين قويتين ، تنضم اليهما امارات استرامادورة وجليقية واشتوريش . فأصبح خطره عظيماً في غاراته على الاندلس الاسلامية ، واتجاه انظاره الى ام عواصمها قرطبة ، بعدما تم له الاستيلاء على حصن ابدة (Ubéda) (١٢٣٣) .

وكان المتوكل بن هود يزحف يومئذ الى غرناطة ليحارب منافسه ابن الاحمر ، فلم يفت الاسبانيين الذين كانوا في ابدة ان ينتهزوا الفرصة ، وقد علموا من الاسرى المسلمين ان قرطبة قليلة اسباب الدفاع ، وان افتتاحها امر ميسور . فادجت منهم كوكبة صغيرة ، يسترها ظلام الليل ، ويخفي حركاتها انهمار المطر ، حتى بلغوا الضاحية الشرقية من عاصمة المروانيين ، وارشدهم الاسرى الخائنون الى المواقع التي يصلح منها الصعود الى السور . فنصبت السلم ، وتسلق الجدران جماعة من الفرسان الاسبان . وكانوا قد استمالوا بعض حراس الابراج بالمال ، فكتموا امرهم عن الآخرين ، واوهموهم ، عندما سمعوا خفق اقدامهم ، انهم سرية آتية للتفتيش ، فخدعهم بذلك ، ومكنوا اعداءهم من دخول احد الابراج ، فامتلكوه ، وقتلوا حراسه . ثم انحدروا الى باب قريب ، ففتحوه لرفاقهم ، فتسللوا منه الى احياء الضاحية يفتكون بالسكان الآمنين فتكاً ذريعاً ، حتى تنفس الصبح وانتشر الخبر ، فثارت الحامية في وجه المغامرين فقاتلتهم حائقة ، فطردتهم من الشوارع ، والجاتهم الى التحصن بالبرج الذي سقط في ايديهم . فعلموا ان محاولة افتتاح مدينة عظيمة كقرطبة ، بعدد قليل من الرجال ، ضرب من

الجنون، فهي من نفسها وحدها في جحفل لجب، على حد تعبير
ابي تمام. فأرسلوا يستنجدون قائد منطقة قرطبة الفاييريز ذا
كاسترو. وبعثوا رسولا الى الملك فردينانف في لاون يسألونه
الاسراع بالمجيء.

وما كاد يصل الرسول الى القائد الاسباني حتى خف اليهم بما
استطاع جمعه من حاميات الحصون والقلاع، فأدركهم على عجل،
وثبت مقامهم في البرج يردون عنه المهاجين، ويشرفون على
قسم من الضاحية، الى ان تأتيهم نجدة الملك وجيشه...

ولم يكن فردينانف يتوقع هذا التوفيق العجيب في قرطبة
بكوكبة من الفرسان، فبادر اليها بثلاثين فارساً، بعد ما اصدر اوامر
بحشد العساكر من المدن والقرى، واستدعاء جماعات الفرسان المنظمة،
وان يتبعه الحشد دون ابطاء. ثم سارع بفرسانه الثلاثين الى قرطبة،
فأبتهج الجند لرؤيته، واشتدت ظهورهم في مقاومة المسلمين. فاحس
هؤلاء الخطر المهدد، وتيقنوا انه اذا لم يتداركهم ابن هود بقواته،
دارت عليهم الليالي، وآضت قاعدة الملوك في حوزة الاعداء. فطيروا
الرسل الى المتوكل يستحثونه لانقاذهم قبل فوات الاوان.

ولولا خور العزيمة، وعقم في الرأي لكان بوسعه ان يتدارك
العاصمة، ويمنع استخذاءها. فالظاهر ان الانكسارات التي مني بها
في محاربة المسيحيين، وما ناله خصوصاً من فردينان الثالث، اضعف
همته، وواقع هيبة الاسبانيين في نفسه، فلم يجرؤ على تلبية صوت
قرطبة، قبل ان يتبين قوة اعدائه، ومبلغ ما جردوا لها من العساكر،
مع ان الموقف حرج، فلا يحسن باميرها ان يتركها تلاقي وبالها، وهو

قريب منها ، ولديه جيش كبير يستطيع الدفاع عنها . ولم يقتصر على
 تلكوه الدميم ، بل قاده قصر الحيلة ، وسوء طالع الاندلس ، الى ان
 يعهد في استطلاع احوال العدو الى فارس جليقي اسمه سوارز ،
 كان الملك فردينان قد نفاه عن قشتالة فجاء برجاله الى المتوكل ، وجعل
 سيفه في خدمته ، شأنه شأن كثير من الفرسان المسيحيين والمسلمين
 اذا خرجوا من بلادهم ناقلين على امراءهم . على ان هذا الفارس الجليقي
 لم يكن لينسى ان المهمة التي ندبه اليها ابن هود بكل سذاجة ،
 يتوقف عليها خذلان ملته ، وابناء قومه ، فغلت في صدره عصبية
 الدين والوطن ، ورأى الحال مؤاتية لاسترضاء مليكه والرجوع
 الى ارضه . فوعد المتوكل بالخبر اليقين ، وسار الى فردينان ، فاطلعه
 على واقع الامر ، وطلب اليه ان يضاعف نيران الاحراس ليلاً ليوهم
 المسلمين بكثرة جيشه ، واتساع المساحة التي يشغلها في نزوله . ثم
 عاد الى ابن هود ، واتفق يبالغ له في وصف قوة العدو ، وحسن
 سلاحه ، والخطر الذي ينتظره اذا حدثته النفس ببقائه . واره
 بعينه اتساع نيران الحراسة وامتداد لظاها . فاستطير المتوكل ،
 وداخله الذعر ، فخام ولم يجسر على الاقدام ، ونسي انه مسؤول عن
 مصير ام المدائن .

وفيما هو على هذا الحال من الاضطراب جاءه رسول من ابي
 جميل زيان امير بلنسية ، يستغيثه على جايم ملك ارغون . وكان
 قد اتاخ عليه بقواته ، فآثر ابن هود ان يدلف الى غوث بلنسية
 لعله ينقذها من الارغونيين ، فيضمها الى مملكته ، ويتقوى بها ،
 ثم يرتد الى قرطبة ، فيخرج منها القشتاليين . ولكن التقادير

جرت بغير ما في الحسابان ، فانه ما كاد يبلغ المرية حتى اغتيل
فمات خنقاً ، ولم تنج بلنسية من يد ملك ارغون ، وتركت
قرطبة وحيدة ، تدافع بشهامة هجمات الاعداء ، وتلقى الهلاك
باسلة لا تسلم إباءها للخنوع ، الى ان خاب املها من المتوكل ،
واقطع عنها رجاء كل نجدة ، فعلمت ان المقاومة اصبحت لا تجدي
فتيلاً ، وانما هي انتحار ليس غير ، فالافضل ان تفاوض العدو ،
فعاها تنال منه شروطاً شريفة مقبولة . بيد ان العدو كان شديد
التعنت والاستكبار ، خصوصاً بعد ان صار النصر ملك يديه ،
وزال خطر المتوكل عنه . فأبى الا ان يسوم الاندلسيين ظلامه ،
فأعطاهم الامان على نفوسهم دون املاكهم واموالهم . فاضطر اهل
قرطبة الى القبول مكرهين ، وفتحت المدينة الكبرى ابوابها
للظافرين ، فدخلها فردينان الثالث ملك قشتالة ، لاون بفوارسه
على اصوات الابواق والطبول في ٢٩ حزيران سنة ١٢٣٦ (٢٣
شوال ٦٣٣) بعد ان كابدت حصار ستة اشهر متواليات ، فسقطت
بها اعظم قاعدة اندلسية في ايدي المسيحيين ، وخرج المسلمون
منها منكسي الرؤوس ، متخلين عن اموالهم ، هارين الى البقية
الباقية من المدن الاسلامية في الاندلس .

ومشى الفاتحون الى المسجد الكبير يرتلون اناشيد الشكر ،
فحولوه كنيسة ، ورفعوا الصليب عليه ، واقاموا فيه الصلوات
والقدايس . وجيء باجراس شنت يا قب الى فردينان ، وكانت لم
تزل محفوظة من عهد الحاجب المنصور حين غزا مدينة القديس

يعقوب (٩٩٧) ' ودمرها ، وانتزع اجراس كنيستها الشهيرة ،
 واجبر الاسرى المسيحيين ان يحملوها على عواتقهم الى قرطبة .
 فأمر فردينان ان تعاد هذه الاجراس الى كنيسة شنت ياقب ،
 محمولة على اكتاف الاسرى المسامين ، فنقلت الى موطنها بعد غربة
 طويلة ، وحررت بعد اسر امتد نحو ثلاثين ومائتين من السنين .
 فخرجت شنت ياقب للقاء اجراسها تحيط بحاملها مهلة مبهجة ،
 كما خرجت قرطبة بالامس البعيد تستقبل هذه الاجراس على
 اكتاف اصحابها ، وهي نشوى من خمرة الظفر العابق . فأعاد
 التاريخ نفسه ، ولكن بصورة معكوسة ، فسبحان مغير
 الاحوال .

فاجعة غرناطة

لم يبق في ايدي المسلمين من الاندلس العربية ، بعد انهيار دولة
الموحدين ، ومقتل محمد بن هود ، وسقوط قرطبة وبلنسية واشبيلية
وسواها من المدن والقلاع ، الامملكة غرناطة ، ويشمل حكمها كورة
البيرة (Elvira) ومنها قطر لوشه (Loja) على نهر غرناطة المعروف
بنهر شنيل (Xenil) . ومن اعمالها وادي آش (Guadix) والمنكب
(Almunécar) وجبال البشُرات (Alpujarras) وبسطة (Baza) .
واشهر مدنها التجارية على ساحل البحر مالقة (Malaga) والمرية
(Almería) .

ومع ان هذه الامارة صغيرة بمساحتها ، فقد تسنى لها ان ترزق
الحياة مدة مائتين وخمسين سنة ، على ما كان يحدق بها من خطر الدول

المسيحية . ذلك بان الملوك الاسبانيين كانوا يشغلون عنها بمحاربة بعضهم لبعض : حروب كادت تستغرق النصف الثاني والنصف الاول من القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ولا سيما نضال قشتالة وارجون . ثم انهم تعودوا ان ينتفعوا من اموال المسلمين ، فكانوا يجدون لذة في ضرب الجزية عليهم واعتبارهم من اتباعهم ، كما كان الامراء المسلمون يجدون هذه اللذة من قبل ، فقيصوا لغرناطة عمراً مديداً ليمتعوا النفس باستصنائها والاشراف عليها . اذ الى ذلك ان موقعها الطبيعي ، وما فيها من الحصون والقلاع والابراج ، يضمن لها ارهاق غزاتها . وهي على ضيق ارضها مكتظة بالسكان لان معظم المسلمين الذين هاجروا من الولايات الاندلسية التي استردها المسيحيون ، لجأوا اليها واتخذوها مقراً ، فلقيت فيهم عدداً عظيماً من المحاربين الاشداء يدافعون عنها الاسبانيين بحمية واستبسال . فاذا تكالب العدو عليها وأحست الضنك استصرخت سلاطين المغرب ، وفي مقدمتهم بنو مرين ، فيجيزون اليها جيوشهم لرد العاديات عن ارباضها . فظلت هذه المملكة الصغيرة بمأمن من الكارثة العظمى لا تخشى شرها ، حتى تم الاتحاد بين قشتالة وارجون سنة ١٤٦٩ ، فتزوج فردينان الخامس ايزابلا الكاثوليكية ، واجتمعت دولتان قويتان على امارة بني الاحمر تصليانها الحرب العوان طوال عشر سنين . ورافق ذلك تضعف في احوال غرناطة من خلفها الداخلي ، وانقسامها احزاباً محتربة وتتصارع ، ويفزع بعضها الى الملوك المسيحيين لمقاومة بعض . فهدوا السبيل للنيل منهم ، وتغلب العدو على مدنها وقلاعهم . فقد بات قصر الحمراء ملعباً لدسائس النساء

ومكايدهن ، فاشعل الثورات الاهلية ليستفيد منها الاسبان .
وكان من سوء الطالع ان يتولى امر غرناطة السلطان ابو الحسن
علي بن الاحمر ، رجل لذات وشهوات ، فأهمل رعاية الجيش ، واقدم
على قتل كبار القواد ليأمن انتقاضهم . فتراخت القوى العسكرية
في الدولة ، وقل خطر حاميات الثغور . ولم يقتصر على هذا بل
سلم زمام الاحكام الى وزيره ، وقعد عن الجهاد ، حاسباً ان
النصارى لا يغزونه ، ولا تنقضي بينهم الفتنة . واحتجب في قصره
عن الناس ليتفرغ لنسائه وملاهيته . فأفكر الخاصة والعامة ذلك
منه ، وكثرت المظالم والمغارم على حد تعبير المقرئ . فاذا الثورة
تمخض في شعله ، فتنتقض مألقة على حكمه ، وتبايع اخاه
ابا عبدالله محمداً الملقب بالزغل ، فتنشب الفتنة بين الاخوين مدة ،
ثم يخضع الزغل لاخيه ، وينقضي الخلاف ليقع بعده خلاف جديد
اشد منه وانكر بين الابن واهيه . وذلك ان ابا الحسن في تهافته
على اللذة كان يكثر من التسري بالجوارى ، ليطيب له الاستمتاع .
فوقع على جارية اسانية اسمها ايزابلا ، فشغف بها شغفاً عظيماً ،
واستولت على ارادته ، فحملته على ان يتزوجها ، واسامت فسميت
الثريا ، فأحلها المنزلة الاولى بين نسائه حتى انه قدمها على زوجه
عائشة ، وهي بنت عمه السلطان ابي عبدالله الايسر . وشاء ان يجعل
ولاية العهد لبعض اولادها ، فاشتعلت الغيرة في صدر عائشة ،
وراحت تدس للثريا ، وتنصب لها اشراك مكايدها ، فانقسم خدام
القصر على فئتين متنافرتين ، تميل الواحدة الى اولاد الحره ، والاخرى
الى اولاد الجارية . والشعب خارج القصر يتذمر على الوزير لجوره

واستبداده، يطلب اقصاءه عن الحكم، والسلطان لا يلي له طلباً .
ولم تكن هذه الاحداث لتخفى على ملكي قشتالة وارغون،
او يفوتها استغلالها، وهما في زواجهما واتحادهما، قررا ان يزيلا
باقي كلمة الاسلام عن اسبانية .

وكان السلطان ابو الحسن قد استفزها للجهاد في اعتدائه على
الزهراء سنة ١٤٧٨، وهي تابعة لملكة قشتالة، فحرضت بعلمها على
تجريد حملة صليبية، لا تنثني إلا باخراج المسامين من الاندلس .
فتم تجهيزها سنة ١٤٨٢ (٨٨٧ هـ) فراحت توالي الغارات على
مملكة غرناطة، وتمتحتها بلداً اثر بلد، وتستنزل الحصون او
تقذفها بالمدافع . وفي هذه السنة فرت عائشة من الحمراء، ومعها
ولداها ابو عبدالله محمد وابو الحجاج يوسف خوفاً من زوجها
ان يفتك بهم نزولاً على رغبة حظيته الاسبانية . فقصدوا الى
وادي آس يستثيرون الشعب، وهو في جملته ناظم على ابي الحسن
يمقت استهتاره وقعوده، فد اليهم يده وبايع ابا عبدالله خالماً
اباه . ثم قامت المرية وبسطة وغرناطة بدعوة السلطان الجديد،
فهرب ابو الحسن الى مالقة ملتجئاً الى اخيه الزغل، فاعصوب
الشر بين حزب ابي عبدالله وحزب ابي الحسن، وفيهم الثغريون
(سكان الثغر) وبنو سراج . فقد انتصر الاولون لابي الحسن،
والآخرون لابي عبدالله فكانوا يقتتلون في الشوارع والطرق حتى
تركوا الفوضى منتشرة في البلاد . وتزعم الرواية العربية ان ابا
عبدالله نكب بني سراج وافنائهم، على ان المستشرقين اوغست
مولر وكليمان هيوار يضيفان هذه النكبة، ان صحت اخبارها،

الى ابي الحسن ، لان بني سراج كانوا خصومه وانصار ولده ، فلا يعقل ان ينكبهم ابو عبدالله ، ولعل الرواية العربية تخلط بينه وبين عمه ابي عبدالله الزغل . وعلى حوادث هذه النكبة بني شاتوبريان قصته : آخر بني سراج .

وما زالت الحرب دائرة بين الابن وابيه حتى رجحت كفة الولد ، فأقام سريره في غرناطة ، واطاعته البلاد إلا مالقة والناحية الغربية . وفي سنة ١٤٨٣ (٨٨٨ هـ) قصد المسيحيون مالقة وبلش (Velez) في نحو ثمانية آلاف . وكان السلطان ابو الحسن قد اناخ على نواحي المنكب لمقاتلة ولده ، فالتقاه ابو عبد الله في جند غرناطة والجهة الشرقية فهزمه ، في حين كان الزغل يقاوم الجيوش الاسبانية في مالقة ، ويردها خاسرة . فلما بلغ ابا عبد الله ان عمه الزغل انتصر على الاسبانيين في مالقة ، احب ان يكون له قسط من الجهاد الوطني والديني فحشد عساكره وخرج غازياً ، فتجمع عليه الاسبان في الجبال والاوعار ، فكسروه واخذوه اسيراً بعد ان قتلوا من الجيش خلقاً عظيماً . فاجمع امراء غرناطة واعيان الاندلس على ارجاع والده ابي الحسن ، فذهبوا الى مالقة وبايعوه . وكان قد ذهب بصره على اثر مرض يشبه الصرع اصابه . فرفض ان يقوم باعباء الملك وهو على هذه الحال ، و اشار عليهم بان يبايعوا اخاه ابا عبد الله الزغل ، فبايعه الاندلسيون وقدموا له الطاعة . وانتقل ابو الحسن الى المنكب فاقام بها الى ان مات . واغار المسيحيون سنة ١٤٨٥ (٨٩٠) على غربي مالقة فدخل اهلها في طاعتهم . وحاصروا بعدها رنفة (Ronda) فهدموا

اسوارها بمدافعهم ، وما انفكوا يضيّقون عليها حتى طلب اهلها الامان مستسلمين . ثم ان فردينان رأى ان يضرب المسامين بعضهم ببعض ، فيستفيد من شقاقهم وتحاربهم ، فبعث الى السلطان ابي عبدالله ، وهو اسير عنده ، فاستقدمه وخلع عليه ، ووعد بان يساعده على خلع عمه ، ويعيده الى عرشه . ثم اطلق سراحه وامده بالعساكر والمال ، فنار يطلب الملك ، وجاء بلس فاطاعه اهله ، وناذى الخبر الى غرناطة فمال الى مبايعته اهل البيازين (Albaycin) وهو حي من اقدم احياء غرناطة قائم في اعاليها على تل منحدر يشرف على المدينة ، بينه وبين التل الذي عليه قصر الحمراء فرجة صخرية . وفي البيازين قلعة حصينة تعرف بالقصبة القديمة . وكان اهل هذا الحي على جانب من الجهل ، كما يصفهم صاحب نصح الطيب ، فقاموا بدعوة ابي عبدالله ، وتبعهم بعض اهل غرناطة ، وهم يرجون الصلح مع المسيحيين على يد السلطان الاسير ، لما رأوا من عطف القشتاليين عليه . فوقعت الفتنة بين المسامين ورُجمت البيازين بالحجارة من القلعة .

ثم جاء السلطان ابو عبد الله الى لوشة ، فظنوا انه اتى لمصالحة عمه الزغل . واذا صاحب قشتالة وارغون يدهم لوشة بجيش عظيم فيحاصرها . فخف اهل البيازين الى نصره السلطان ابي عبد الله ، ولكنهم ما لبثوا ان تبين لهم ان السلطان كان على اتفاق مع الملك الاسباني ، ففتحت لوشة ابوابها لفردينان (١٨٩١) وهاجر اكثر اهله الى غرناطة . اما ابو عبد الله فبقي فيها مع الاسبانيين ، فاثبت بذلك شائعة مواطئته لهم . وحقيقة الامر انه

ما حالهم الا لا اعتقاده انهم سيكونون انصاره على عمه فيستعيد منه العرش وان المسلمين يأمنون اعتداءهم في ظل ملكه لارتباطه بالصداقته معهم ، خصوصاً بعد ما وعده فردينان بان من يدخل في حكمه فهو في امان تام . وعلى ذلك نشط الى بلش يدعو الناس لموالاة ^و ويمسيهم بصلاح صحيح ، فاقبل عليه جمع غفير ممن رغبوا في السلامة وكره القتال ، وجاءه في الجملة اهل البيازين يدعونه الى حيههم ، متجندين لنصرته والدفاع عنه ، فانتقل اليهم على حين غفلة ، ونزل في القلعة فانقسمت غرناطة قسمين ، حزباً معه وحزباً مع عمه نزيل الحمراء . ولم يغفل ملكا قشتالة وارغون عن امداده بالجند والمال والقمح والبارود ، فشبث في غرناطة ثورة اهلية كثر فيها النهب والتقتيل .

وفما كان السلطان الزغل يدعو الاجناد والقواد من اهل بسطة ووادي آس والمرية والمنكب لمساعدته وطرد ابي عبد الله من البيازين ، بلغه ان الاسبانيين زحفوا الى مالقة بجيش عظيم ، ونزلوا على بلش يحاصرونها في اذار ١٤٥٧ (ربيع الآخر ٨٩٢) فخفف الى نجدتها بما اجتمع لديه من وفود وادي آس وجبال البشرات ، فرأى العدو يوائبها براً وبحراً ، وقد اخذ بخناقها من جميع الجهات . فوطن النية على منازلته مهما كلف الامر . واذا نباً ياتيه من غرناطة بان العاصمة بايعت ابن اخيه ابا عبد الله ، وان هذا الامير استولى على قصر الحمراء ، فانكسرت عزيمته ، وانهمزم بجيشه قبل ان يلتحم مع الاسبانيين ، وسار الى وادي آس فنزلها وتحصن بها .

وما زال الاسبانيون يشددون الحصار على بلش حتى طلب
اهلها الامان ، ودانت لهم جميع البلاد بشرق مالقة الا جبل فارة
(Gibralfars) حصن مالقة المنيع ، فانه لبث يدعو للزغل ويدافع
الاعداء متمرداً ، ومالقة اعظم فرضة تجارية حربية على باب المضيق ،
تأتيها الامدادات من المغرب ، تنزل بها ثم تنتقل الى غرناطة .
فكان من المعقول ان يوجه اليها فردينان حملته ويفرغ منها قبل
مهاجمة العاصمة ليقطع الصلة بينها وبين العدو المغربي .
فسير اليها جيشاً برياً واسطولاً بحرياً يضربان عليها
نطاقاً عسيراً . فقاتل اهلها قتالاً مجيداً ، وسلط الحصن
مدافعه على البر والبحر ، ففني الاسبانيون بخسائر جسيمة .
غير انهم لم يحجموا عنها ، ولا فتر لهم نشاط ، بل لبثوا
يقتحمون اليها المخاطر حتى دخلوا ارباضها وضيقوا دائرة الحصار
وصاروا يقذفون عليها قنابلهم من مسافات قريبة ، فيدمرون
الحصون والمنازل . فصبرت مالقة صبر الكرام على التقتيل
والتخريب ، وانقطع الامل من مساعدة سلاطين المغرب الى ان
فني ما عندها من الطعام واكلت الخيل والحمر ، فععضها الجوع
المرير ، وغلب عليها اليأس القاتل ، فاضطرت مكرهة الى الاستخذاء
بعد منعتها ، فدخلها المسيحيون في آب ١٤٨٧ (شعبان ٨٩٢) وسقط
في ايديهم حصنها المرید .

وتابع فردينان غاراته كل سنة ، فكان يفتح المدن والقلاع
وهو يظهر الصداقة لابي عبدالله صاحب الحمراء ، ويدعي مناصرته
على عمه ومنافسه في الملك ، وانما وكده ان يعزل غرناطة عن

جميع المدن والولايات الاسلامية ، فيسهل عليه امتلاكها اذا حاصرها ، ويحول دون وصول النجدات اليها . ولا يخفى ما في هذه الخطة من دهاء وحسن تدبير . فلما كانت سنة ١٤٨٩ ، (١٨٩٤ هـ) نهد بجيشه الى بسطة يريد اقتزاعها من الزغل ، فحشد السلطان الجيوش من وادي آش والمرية والمنكب والبشرات ، فوقعت بينهم معارك كثيرة كان النصر فيها للاسبانيين . وتضايق اهل بسطة من الحصار والجوع ، فطلبوا الامان ، وخضع الزغل لفردينان وبايع له على ان يبقى تحت طاعته . فدخل الاسبان بسطة في كانون الاول ١٤٨٩ (محرم ٨٩٥) واقاموا في كل قلعة قائداً مسيحياً . ودانت لهم وادي آش والمنكب والمرية ، فتم لفردينان ما اراده ، ولم يبق خارجاً عن حكمه سوى غرناطة وقراها وجبال البشرات . فعندئذ تبدلت سياسته نحو صاحب الحمراء ، فأظهر الميل لابي عبدالله الزغل ، ودعا الناس الى الالتفاف حوله ، وبذل المال لبعض القواد المسلمين فباعوه ضمائرهم ، وجعلوا رجالهم في خدمته توفيراً لرجاله . فسقطت امام وجهه جميع الحواجز التي كانت تعوق زحفه الى غرناطة ، فكتب الى صاحبها يستنزله عنها ، واعدأ اياه بان يضعه تحت حمايته ، ويعطيه مالاً جزيلاً . ولكنه لم ينتظر الجواب بل دلف اليه بعساكره لينجز الامر سريعاً . فجمع ابو عبدالله اعيان المدينة وقوادها ، ومندوبين من عامة الشعب ، واطلعهم على كتاب فردينان ، طالباً منهم ان يبدوا اراءهم في الجواب عليه ، فاما ان يرغبوا في الجهاد والدفاع عن دينهم واستقلالهم ، واما ان ينزلوا على حكم المسيحيين . فاتفقوا باجمعهم

على الجهاد المستميت . فأرسل الى فردينان يبلغه رفض طلبه والاستعداد لقتاله . فمضى الملك الاسباني الى مرج غرناطة فاحتله بجيشه ، وبعث الى سكان العاصمة يهددهم بافساد زروعهم ، اذا اصرروا على مخالفته ، فلم يجد عندهم غير الصلابة والاباء . فانقسف الزرع كله ، وهدم بعض الحصون ، إلا انه احجم عن ضرب الحصار لقلعة في الذخيرة والجند ، وآثر ان يرتحل الى بلاده ، مرجئاً امر غرناطة ليوم آخر . وما كاد يبتعد حتى عادت بعض الجهات الى طاعة صاحب الحمراء ومنها جبال البشرات . وكان الزغل قد استقر بالمرية ، فدلف اليه ابن اخيه بحملة من غرناطة . ليسترد الاماكن التي سلمها للعدو ، فتلقاه عمه بجيش فيه قوات من النصارى الاسبانيين ، فنشبت بينهما معارك دامية لم يترجح النصر فيها لاحد منهما . وفي اثنائها خرج فردينان بجيش انضم اليه المدجنون^١ والحانة والمرتدون^٢ ، فقصدا الى وادي آش واجلى عنها المسلمين . فاما بلغ خبره السلطان الزغل ، خاف على نفسه لمصادقته الاسبانيين وهم اليوم ينفون ابناء ملته عن ديارهم ، فكره البقاء في الاندلس ، فعبر البحر الى وهران ، ثم الى تلمسان ، واستقر بها بعيداً عن عرشه وسلطانه .

وعاد ابو عبدالله الى غرناطة يتأهب للقاء العدو بعد ان اصبحت العاصمة الهدف الوحيد لانظار ايزابلا وفردينان ، وهيهات ، لا يطمئن

١ هم المسلمون الذين يعيشون في بلاد النصارى ولهم عليهم حق الحماية والذمة .

٢ المرتدون : النصارى الذين اسلموا ثم ارتدوا الى النصرانية .

لها فتح ما دام المسلمون معتصمين بالجرء . فيكفي ان يقع من الحوادث الداخلية ما يشغلها حيناً عن الولايات المفتوحة حتى تنتقض عليهما ، وتعود منضمة الى غرناطة ، ناشدة حريتها واستقلالها ، فلا الفتح مكفولاً ولا النصر سالماً ، او يندك المعقل الاخير لدولة الاسلام في الاندلس . وعلى هذا ، صمم العاهلان ان يضربا الضربة الحاسمة ما دام الزمان مؤاتياً ، فيأمننا من مفاجآت الغد . فنهضا الى حشد العساكر من قشتالة وارغون ولاون وجليقية واشتوريش وسواها ، فتم لها جيش همام ، فيه زهرة الفروسية الاسبانية ، يترأس اقسامه الاحبار والقوامس ، وتنتشر فوقه رايات الصليب والصور المقدسة ، ومعه من المؤن والمدافع والسلاح مقادير عظيمة تنذر بحرب ضروس لا هوادة فيها . وكان فردينان وايزابلا يقودان هذه الجيوش بنفسيهما ، ويتمهدان سيرها ونزولها . فزحفا بها في اذار ١٤٩١ (جمادى الآخرة ٨٩٦) الى مرج غرناطة الجنوبي (La Véga) ونصبا الآت الحصار على العاصمة ، وقذفا حصونها بالمدافع ، ولكنها كانت منيعة ، فلم يهن جانبها ولا تثلمت ابراجها . فعلم الاسبانيون ان الحصار طويل لا ينقضي امده الا بعناء شهور . فامرت ايزابلا ببناء مدينة مقابل غرناطة تناوئها مدة الحرب الى ان تظفر الواحدة بالآخري . وهذه الخطة اخذها الاسبانيون عن العرب عندما يطول الحصار . فبنيت المدينة وسميت شنتفي (Santa-Fé) اي الايمان المقدس ، فنزلتها العساكر الاسبانية مستظلة بحصونها ، فكان في ذلك بلاغ للغرناطيين بان هذه الحملة تختلف عن الغارات السابقة ، فماتت بالزرع وامتلاك بعض الحصون .

فوطنوا النفس على الصبر والجلاد، ووقف القواد والاشراف بجانب
السلطان ابي عبدالله يشددون عزيمته، ويدعونه الى الثبات. فصبرت
غرناطة على الحصار وقصف المدافع، رابطة الجأش، عنيدة المراس،
غير ان الميرة عندها لم تكن تكفيها سوى مدة قصيرة، والحصار
الخائق يمنع الوارد اليها من الخارج، وليس لها باب مفتوح الا
من ناحية جبل سُلَيْير (Sierra Nevada) الى البشرات تأتيها
منه المؤونة رشحاً لوعورة المسالك. فكان الضيق يدفع اهلها حيناً
بعد آخر الى ترك الاسوار والحصون لمنازلة العدو فتقع معارك
دامية يستبسلون فيها مقاتلين قتال الضواري، فيسيل مرج غرناطة
دماءً، ويكتسي بالجثث والهام. وكانت ايزابلا تتعهد الجرحى الاسبانيين
بنفسها، تؤاسيهم وتضمدهم كلومهم، وتحت الاجناد على الصبر وحسن
البلاء. فتوالت المعارك بين الفريقين راية الخسائر، والزاد والرجال
في غرناطة قليل، والعدو وافر العدد والذخائر، فلا بد ان يفضي
الامر الى معركة فاصلة تنكسر فيها شوكة الغرناطيين، ويستطيل
عليهم الاسبان بقواتهم الجرارة، فيضطرونهم الى الانقباض وراء
الاسوار لا يجرؤون بعدها على طلب القتال. فيعود الحصار بانقاله
ويشتد الجوع على المسلمين، فيزداد العدو طمعاً فيهم، ويفر من
المدينة خلق الى جبال البشرات. فدعا السلطان ابو عبد الله رجال
الدولة واهل المشورة، يستطلع آراءهم فيما ينبغي عمله، فاتفقوا على
اسلام البلد حفاظاً على النفوس ان تهلك حيث لا يجدي الهلاك.
فاختاروا وفداً من رؤساء الجند للمفاوضة، فخرجوا الى معسكر
الاسبانيين، فاستقبلهم فردينان وايزابلا بمحاوطة، فعرضوا عليهما

اسلام العاصمة على شروط فيها الامان للمسلمين . فقبل العاهلان
دون تردد ان تفتح المدينة ابوابها صلحاً ، ووضعت معاهدة
الاستسلام وهي تتضمن سبعة وستين شرطاً على قول المقرئ .
ومن النظر الى هذه الشروط يتبين ان المسلمين فاضوا
اعداءهم مفاوضة الند للند لا مفاوضة المغلوب للغالب ، وان
العاهلين الاسبانيين كانوا متساهلين الى حد بعيد تخلصاً من هذه
الحرب الطويلة ، ووصولاً الى الغاية التي يتوخاها . ولعل فردينان
كان يضمر وراء هذا السخاء خطة معينة ينوي تنفيذها عندما
يصبح امر غرناطة في يده ، وتسرح جنود المسلمين ، وتؤخذ
منها قلاعها . فقد جاءت شروط المعاهدة في مصلحة المنكسرين
اكثر منها في مصلحة الظافرين . ولا يرجو مقهور ان ينال من
قاهره شروطاً شريفة افضل منها تصون حرية الدين وحرية
النفوس معاً . فهي تنص من الناحية الدينية على انه : لا يجوز
للجنود المسيحيين ان يدخلوا المساجد الا باذن من الفقهاء ،
وتبقى المساجد والاقواف كما كانت . ولا يمنع مؤذن ولا مصل
ولا صائم عن اموره الدينية . وكل مسيحي يضحك منهم في اثناء
اقامة شعائرهم يعاقب . لا يقسر من اسلم من النصارى على
الرجوع الى دينه ، واما من تنصر من المسلمين فانه يوقف اياماً
حتى يظهر حاله ، ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى ،
فان ابي الرجوع الى الاسلام يترك على ما اراد .
وتنص من ناحية اخرى على حماية النفوس والعادات والمنازل
والاموال ، فلا يجوز للعساكر المسيحية ان تدخل بيوت المسلمين

او تأخذ منها طيورها ومواشيها ، او تقيم فيها الولايم والمراقص
 على كره من سكانها . ولا يسمح للجند الاسبانيين بان يصعدوا
 الى السور الذي يفصل القلعة عن البيازين لئلا يستطلعوا على دور
 المسلمين . ولا تخرق القوات المسيحية مدينة غرناطة يوم دخول
 العاهلين الى الحمراء ، وانما تسير في طريق منحرف خارج الاسوار ،
 مراعاة لشعور الغرناطين . ومن هرب من اسارى المسلمين ودخل
 غرناطة فلا سبيل عليه لمالكه ولا لسواه . ولا يعاقب من قتل
 نصرانياً ايام الحرب ولا ترد منه الاسلاب التي غنمها ، ولا يؤخذ
 احد بذنب غيره . ويخير المسلم في البقاء او في السفر الى المغرب
 وافريقية ، فمن آثر البقاء ، ورضي ان يكون من رعايا صاحبي
 السمو الملكي ، يبقى له سكنه وماله وعقاره ، ولا يؤدي من
 المغارم زيادة على ما كان يؤديه للامراء المسلمين ، وترفع عنه جميع
 المغارم والمظالم المحدثه ، ويسير في بلاد النصرى آمناً في نفسه
 وماله ، ولا يجعل علامة يعرف بها كما يجعل اليهود والمدجنون .
 ولا يحكم على احد منهم الا بشريعتهم لدى قضاتهم ، ولا يولى
 عليهم نصراني او يهودي . ويحق للتجار المسلمين ان يسافروا
 ويعودوا متمتعين بالحرية والطمأنينة ، فيمكنهم ان يعبروا بتجاراتهم
 الى افريقية كلها ، وان يتنقلوا في جميع الولايات الخاضعة لصاحبي
 السمو ، ولا يؤديون من المكوس زيادة على ما يؤديه التجار
 المسيحيون . ويجب ان تكون اسواق المسيحيين ومجازرهم منفصلة
 عن اسواق المسلمين ومجازرهم لكي لا يحصل اختلاط في البضائع
 واللحوم . ويستقل المسلمون بمياههم وانايبهم ، فلا يحق للمسيحيين

ان يشربوا منها او يغسلوا بها ثيابهم . وان صاحبي السمو وقوادها
الاكرام يراعون المسلمين ، ويعاملونهم معاملة الاتباع الاوفياء .
اما من آثر الهجرة على البقاء فلا يمنع ، وتنقله الى العدو
الافريقية ، في مدة معينة ، مراكب صاحبي السمو ، ولا يلزمه إلا
الكراء ، ويحق له ان يأخذ معه جميع امواله : ذهبه وفضته
وحلاه ، وبضاعته وسلاحه ، ما عدا الاسلحة النارية . ومن يتأخر
عن السفر في المدة المعينة ، يعطي عندما يسافر عشر ماله والكراء .
واذا لم يطب المقام للمسلم الاندلسي في المغرب وافريقية ، واحب
العودة الى غرناطة ، يسمح له بذلك في مدة ثلاث سنوات من
سفره ، ويحق له ان يتمتع بجميع الذمم التي تنص عليها المعاهدة .
ويشترط العاهلان الاسبانيان مقابل ذلك ان ينتقل ابو عبدالله
سلطان المسلمين باهله وحرسه من الحمراء الى البشرات ، وتكون
سكناه بأندرش (Andaraxe) ، وان يُستوثق خمس مائة من
اعيان غرناطة رهناً حذار الغدر والعصيان .

وخط فردينان وايزابلا اسميهما تحت هذا القسم :
« نؤكد ونقسم بايماننا وكلامنا الملوكي اننا نحافظ ونأمر
بالمحافظة على مضمون جميع ما هنا من كل شيء ، وكل جزء ،
الآن وفيما بعد ، الآن وفي كل آن . »

وابرم الشروط بعدها ابو عبدالله وزعماء المسلمين ، فتوقفت
الاعمال الحربية في كانون الاول سنة ١٤٩١ (صفر ٨٩٧) . وفي
اليوم الثاني من كانون الثاني ١٤٩٢ (٢ ربيع الاول ٨٩٧) فتحت
غرناطة ابوابها فدخلها صباحاً فردينان الخامس وايزابلا الكاثوليكية

بموجب حافل ، فسارا توأ الى الحمراء . وكان قائد القلعة ينتظرها على عتبة الباب فقدم لها المفاتيح ، فسامهاا للدككونت تنديلا (Tendilla) وجعله قائداً عاماً لمملكة غرناطة . ثم رفع الصليب الفضي وعلم قشتالة على برج فيلة (La Vela) اعظم ابراج الحمراء ، واحتلت رجالة الجنود الاسبانية جميع الاسوار والبروج .

وكان السلطان ابو عبد الله قد غادر القلعة قبل دخولها العاصمة فاجتار ساحة الاسود كسيراً منخلع الفواد ، يسير مطرقاً الى منفاه وبجانبه امه عائشة صامته ، قاطبة ، والناس وقوف في الشوارع والشرف يشيعونه بانظارهم منقبضين ، من بين راحم وناقم ، حتى اذا انعطفت به الطريق ، وكادت الحمراء تتوارى عنه ، ارسل اليها النظرة الاخيرة ، وهطلت عيناه بالدموع . فالتفتت اليه امه وقالت له بمرارة الشامت المتألم :

إبك مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال ولا يزال هذا الموضع يسمى الى اليوم « زفرة المغربي » . واقام ابو عبد الله باندرش الى سنة ١٤٩٢ (٨٩٨ هـ) ، ثم عبر البحر الى المغرب ونزل بفاس فاتخذها مقراً حتى مات .

خلت غرناطة من ملوكها بني الاحمر ولكنها بقيت آهلة بالمسلمين ، يزاولون فيها اعمالهم مطمئنين الى عهد فردينان ، حاسبين ان الاسبان مقيمون عليه طويلاً لا ينقضون شروطه ، فيتسنى لهم مع الزمن ان يجددوا قواهم ، ويستأنفوا جهادهم لاسترداد سابق عزم وسلطانهم . فاذا كان ما نالهم من ذل وانكسار عقاباً سماوياً على آثام اقترفوها ، او اقترفها حكاهم وزعماءهم ، فلن يتخلى الله

عنهم ، فيأذن ببقائهم خاضعين لحكم النصارى ، والنبوات التي
 يسمعونها من افواه الذين يقال ان لهم زلفى عند الله ، تبعث في
 نفوسهم املاً حياً وتبشر بقرب الخلاص ، وانتهاء العقاب .
 ومهما تكن شروط العهد سخية شريفة فهي لا تعدو ان
 تكون شروط الغالب على المغلوب ، تظالعه ابدأ بزوال دولته ،
 ووجوب خضوعه للمسيطر الغريب . وما تعودوا من قبل ان
 يخضعوا الا لابناء ملتهم ، بل كانوا يتبرمون بحكم سلاطين المغرب ،
 ويعتبرونهم دخلاء عليهم ، مع انهم مسلمون ويتكلمون العربية ،
 فكيف يرضون حكم الاسبانيين وهم غرباء عنهم في الدين والجنس
 واللسان . فلماذا لا يسعون بكل ما لديهم من الوسائل لتحطيم هذا
 النير الثقيل ؟ فعهد فردينان قد ترك لهم الحرية في السفر الى الامصار
 الافريقية ، لتعاطي التجارة ، فبوسعهم ان يتصلوا بسلاطينها ،
 ويحرضوهم على تجريد حملة قوية تنقذ الاندلس المسامة . وما يمنعهم
 ان يستنجدوا المماليك في مصر ، او يفرعوا الى الدولة العثمانية وهي
 في فتوتها ونشاطها ، وایان مطامعها . ممالك اوربة تداريها وتخشاها
 بعد ان واتاها الحظ ، فافتتحت القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، وجعلتها
 قاعدة لها ، فجثمت على الشاطئين ، بيدها مفاتيح الشرق والغرب .
 دولة مسامة مكيئة العقيدة ، تطمح الى الخلافة لتصبح باسم الشرع
 حامية الاسلام ، فلا بدع ان يجد الاندلسيون عندها عطفاً وتشجيعاً
 كما وجدوا عند سلاطين المغرب وافريقية ومصر ، فتصبح بعد ذلك
 شواطئ الاندلس غرضاً لغارات القرصان المسلمين يعيشون فيها
 وينشرون الدعر والاضطراب . فكانت هذه الغارات كافية لتحريك

الاندلسيين مع انتظارهم القوة التي وعدت افريقية بارسالها ، وهم لا تنقصهم الشجاعة ، ولا العصية الدينية ، ولا كره الغريب البغيض . ومن جملة تساهل العهد معهم ان ترك لهم اسلحتهم ، فكأنه اعدهم للقيام بالثورة ، ولا سيما سكان الجبال الوعرة كالبشرات . ولم يكن المسامون منحصرين في غرناطة وحدها ، بل ظلت سائر الولايات الاسبانية حافلة بهم بعد ما استردها المسيحيون ، فان فردينان رأى من الخير ان يستبقهم ويعطيهم ذمة المدجنين ، لئلا ينقص عدد السكان فتتأثر التجارة والزراعة . فوجود هؤلاء في قلب اسبانية اشبه شئ بقوة خفية مبثوثة تعتمد عليها غرناطة اذا هبت نائفة . وغير مستصعب عليهم ان يتفاوضوا ويتفاهموا ليجمعوا امرهم على خطة يضعونها ما دام التاجر الغرناطي يحق له ، كالتاجر الاسباني ، ان يتردد في مملكتي قشتالة و ارغون . فلم يمض على العهد بضع سنوات حتى اخذ الجبليون ينتقضون ويثورون ، وبدأت قشتالة تفكر بالغاء العهد او تعديل شروطه . والظاهر ان اول فكرة خطرت لها حفاظاً على الامن ، وتحقيقاً للوحدة القومية ، هي تنصير المسامين وتعليمهم لغة البلاد وعاداتها لان الاسبانيين اعتقدوا ان هذا الشعب الغريب لن يندمج فيهم ما دام متمسكاً بدينه وعاداته ولغته ، ولعل تساهلهم في شروط العهد كان ترغيباً له في الحكم الاسباني الى ان يتمكنوا من تنصيره او تنصير اولاده على تمامي الزمن . وقد عبر عن هذه الفكرة رئيس اساقفة غرناطة الدون فرناندو ذو تالافيرا (Fernando de Talavera) فطلب عند وضع المعاهدة ان تمسن معاملة الغرناطيين ،

وان يجعل التساهل اساساً لشروطها على امل ان يقبلوا الديانة
المسيحية في المستقبل . وقال في ذلك كلمته المأثورة : « هؤلاء
اولاد ينبغي ان نغذيهم باللبن . » وقد كان من الطبيعي ان يُترك امر
تنصيرهم على عهدة الايام والليالي ، الا ان الخوف من الثورات التي
طفقت تهدد اسبانية ، والحملات التي ينتظر ان تأتيها من افريقية ،
حمل فردينان على اتخاذ تدابير قاسية في حد ذاتها ، فاصدر امره
سنة ١٤٩٩ (٩٠٤) بتنصير المسامين جميعاً ، وارجاع من اسلم من
النصارى الى دينه القديم ، وكل من رفض التنصر يجبر على مهاجرة
البلاد . فحدث هذا القرار اضطراباً عظيماً في غرناطة والبشرات ،
وهب اهل البيازين في وجه الحكام فقتلوه ، وكتبوا الى الملك
الظاهر قنسو الثاني سلطان مصر مستغيثين ، فبعث هذا الى
الملكين الاسبانيين يهددهما بالانتقام من المسيحيين الذين في ارضه ،
فاضطرا الى ان يوفدا مرشد كاتدرائية غرناطة بطرس مارتير
ليوضح له حقيقة الامر ويطلعه على الرسائل التي تلقتها حكومة
قشتالة من سلطات المدن الحرة في افريقية ، تؤكد فيها ان
المبعدين لاقوا من الاسبانيين احسن معاملة . واستطاع العاهلان في
الوقت نفسه ان يخمدا ثورة الجلبين ، ويكرها المسامين على التنصر
ولا سيما الفتيان والفتيات فان التنصر كان شاملاً فيهم . وآثر جماعة
ان لا ينزلوا عن دينهم ، فرحلوا الى المغرب في مدة ثلاثة اشهر
تاركين املاكهم للدولة . قال صاحب نفح الطيب : « وبالجملة فانهم
تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة ، وامتنع قوم من التنصر
ورغبوا في الثورة ، فاستأصلهم الاسبان سبياً وقتلاً ، ومنهم من

خرجوا على الامان الى العدو المغربية . «
ولكن فاجعة المسلمين المنتصرين (Morisques) لم تقف عند
هذا الحد، ذلك بان العدد الاكبر منهم ظل يبطن الاسلام ويحافظ
سراً على شعائره وتقاليده . قال المقرئ : « كان من اظهر التنصر
من المسلمين ، وبقي على دينه خفية ، فشدد عليهم النصارى في البحث
حتى انهم احرقوا كثيراً بسبب ذلك ، ومنعواهم من حمل السكن
الصغير فضلاً عن غيرها من الحديد ، وقامت لهم ثورات في بعض
الجبال على غير طائل . »

فقد فهم الاسبانيون أخيراً ان تحويل شعب عن دينه جملة ،
بطريق الاكراه ، عمل عقيم لا يؤدي الى النتيجة المنشودة . ولم
يجد نفعاً ديوان التنقيب (Inquisition) ما قام به من الفحص
البليغ عن هؤلاء المنتصرين في الظاهر ، ومن ضروب العقوبات
البربرية كالتعذيب والتحريق ، حتى كان عهد فيليب الثاني فاصدر
قراراً (١٥٦٥) باخراج العرب المنتصرة من اسبانية كلها الا من
حسن ايمانه ولم يلحقه شك في نصرانته ، وفصل الاولاد الصغار
عن آبائهم وامهاتهم ، فوضعوا في المدارس تحت رقابة الحكومة
ليتربوا تربية مسيحية خالصة . غير انه لم يتم الجلاء الا في زمن
فيليب الثالث ، فاخرجوا اخرجاً عاماً سنة ١٦٠٩ (١٠١٧) ، فخلت
منهم ربوع الاندلس بعدما عمروها بحضارتهم زهاء ثمانية قرون ،
وأضت اسبانية للاسبانيين .

المراجع

الكتب العربية

- ابن الاثير : الكامل
 ابن خلدون : كتاب العبر
 ابن خلكان : وفيات الاعيان
 المقري : نفح الطيب
 ابن عذاري : البيان المغرب
 ابن بسام : الذخيرة
 ياقوت : معجم البلدان
 البستاني : دائرة المعارف العربية
 بطرس البستاني : ادباء العرب ، ج ٣

الكتب المنقولة

- يوسف اشباخ : تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين
 (الترجمة العربية لمحمد عبد الله عنان)

الكتب الفرنسية

DOZY, *Histoire des Musulmans d'Espagne*,
4 Vol. petit in — 8, 1861.

DOZY, *Recherches sur l'histoire et la
littérature de l'Espagne*. Leyde — E.
J. Brill 1881

Cl. HUART, *Histoire des Arabes*,
Geuthner, Paris.

Louis BERTRAND, *Histoire d'Espagne*,
Arthème Fayard, Paris.

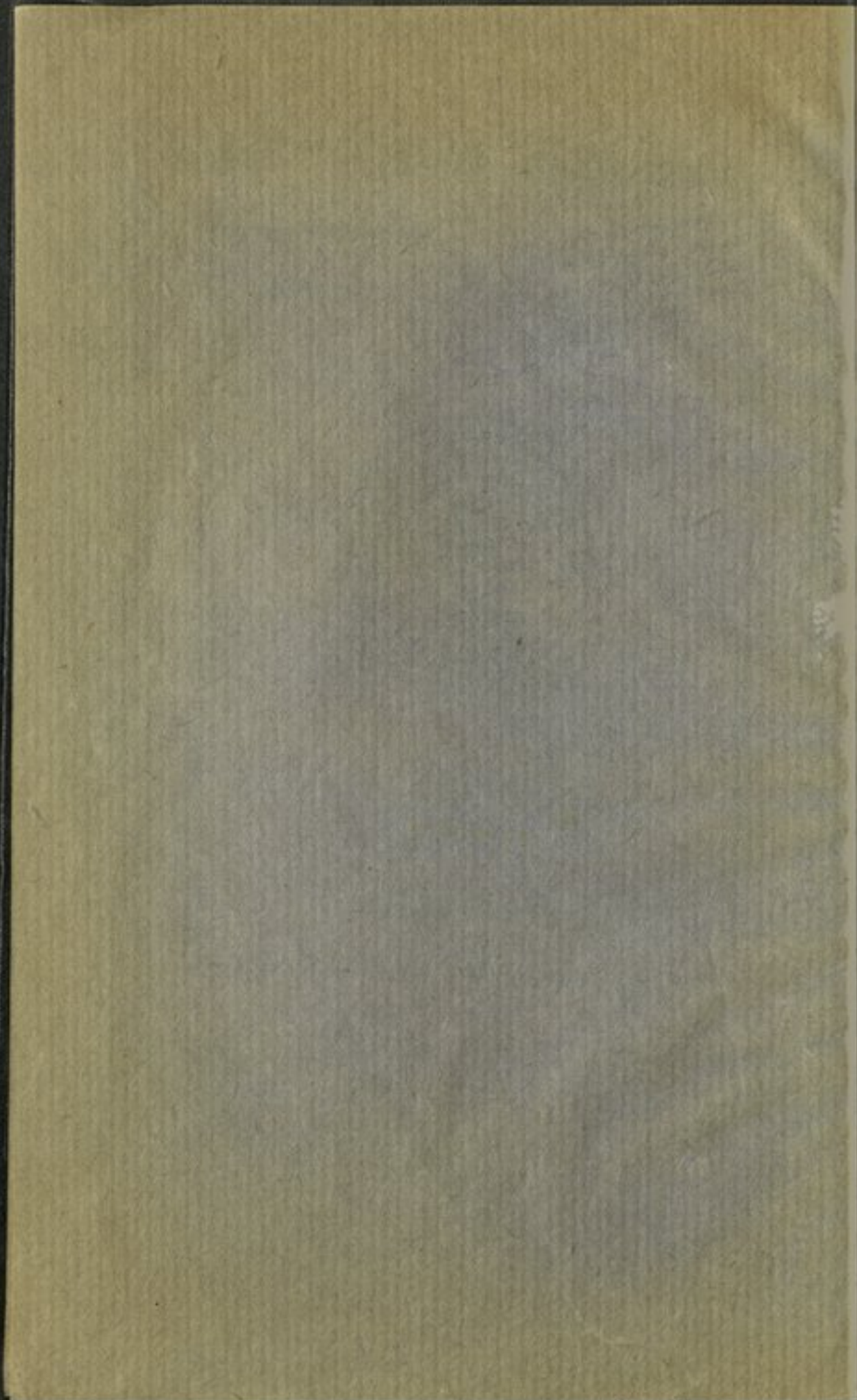
E. LÉVI-PROVENÇAL, *Islam d'Occident*.
Librairie Orientale et Américaine,
Paris.

Georges MARÇAIS, *La Berbérie Musulmane*,
Aubier, Paris.

J. BERAUD - VILLARS, *Les Touareg au
pays du Cid*, Plon, Paris.

C. BROCKELMANN, *Histoire des Peuples
et des Etats Islamiques*.
(Traduction française de M. Tazorout),
Payot, Paris.

انتهى طبع هذا الكتاب على مطابع نصار
في اليوم العاشر من تموز ١٩٥٠ .



946.02
B981mA